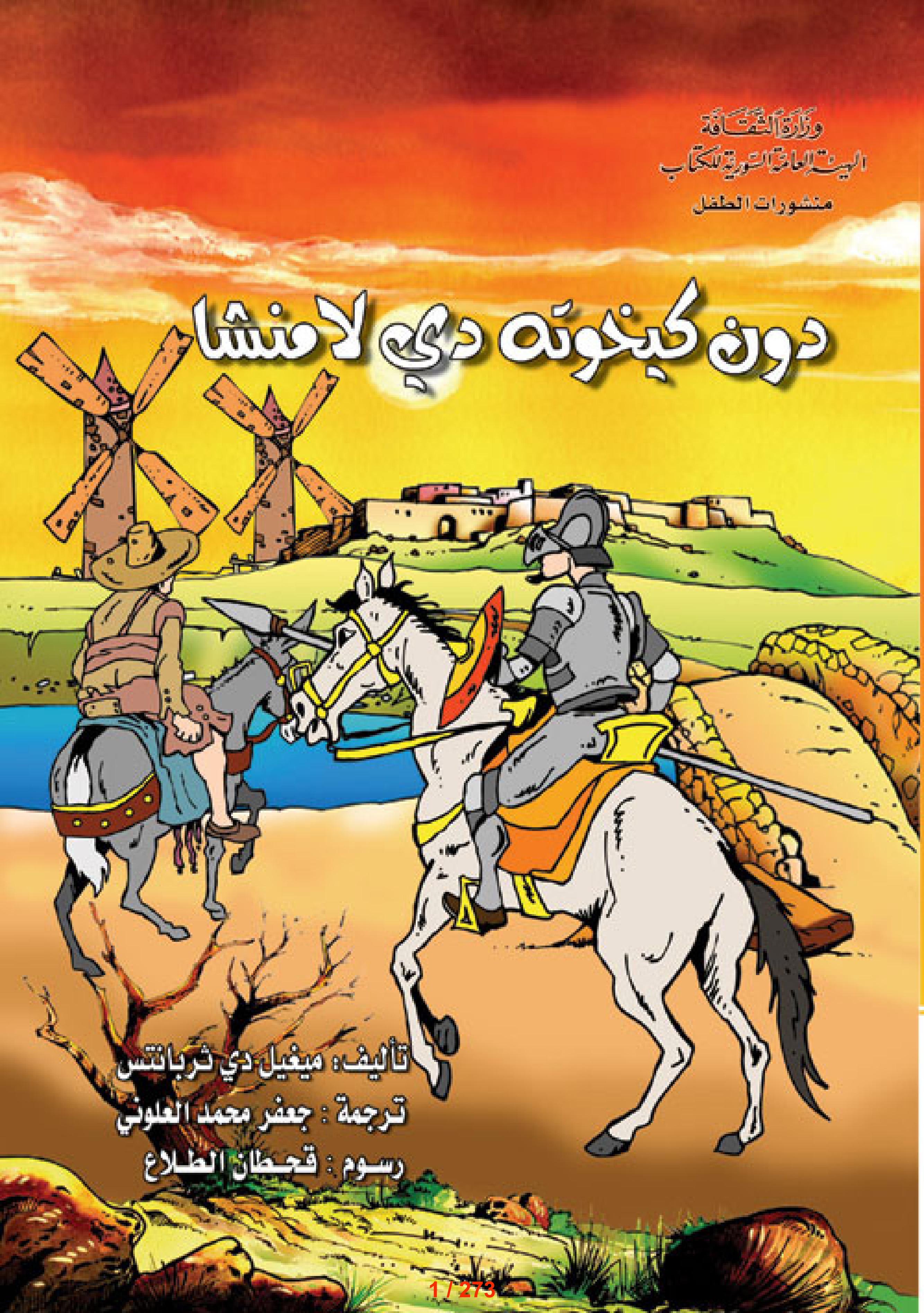


وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
منشورات الطفل
دون كيخوته دي لامنشا
تأليف: ميغيل دي ثربانتس
ترجمة: جعفر محمد العلوني
رسوم: قحطان الطلاع

دون كيخوته دي لا منشا

تأليف: ميغيل دي ثربانتس
ترجمة: جعفر العلّوني
رسوم: قحطان الطلّاع

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣م

دون كيخوته دي لا منشا/ تأليف ميغيل دي ثربانتس ؛ ترجمة جعفر العلوني ؛ رسوم قحطان الطلاع .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب ، ٢٠١٣ . - ٢٧٢ ص: مص ؛ ٢٠ سم.

١- ٨٦٣ س ر ف د ٢- العنوان ٣- سرفنتس
٤ - العلوني
مكتبة الأسد

تنويه

إن هـذا العمل هـو أقرب إلى الإعـداد والترجمة بشـيء مـن التصـرف بما يناسب الأطفال.

المترجم

الكاتب وأعماله

وُلد ميغيل دي ثربانتس في قلعة هنارس في عام ١٥٤٧. التحق في عام ١٥٧١ بالجيش وشارك في معركة «ليبانتو»، حيث تميّز بشجاعته وصلابته. وفي هذه الحرب فَقَدَ ثربانتس يده اليسرى، لكن ذراعه لم تقطع، بل فقد القدرة على استعمالها. ظل ثربانتس يتباهى بهذا الحادث طوال حياته وينشد فيه القصائد.

في العام ١٥٧٥ أُسر ثربانتس وسُجِن لمدة خمس سنوات في مدينة الجزائر إلى أن تم إطلاق سراحه في العام ١٥٨٠ بعد أن دفع فدية من المال، ليعود أخيراً إلى وطنه الأم إسبانيا. تنقل ثربانتس بين الأقاليم الإسبانية وسافر كثيراً بين محافظاتها. عاش في إشبيليا وعمل بوظيفة محصلٍ للضرائب وسجن مرة أخرى بسبب عمله.

عـاش ثربانتس حياةً بائسـة، فقيرة أقرب مـا تكون إلى حياة السجن. قضى آخر سنوات حياته في مدينة مدريد، حيث توفي في ٢٢ نيسان ١٦١٦.

أعماله الأدبية

تشـمل أعمال ميغيل دي ثربانتس الأدبية الشـعر والمسرح والروايـة. وقـد برز من شـعره العديـد من القصائـد نذكر منها قصيدة «رحلة إلى البرناسو». أما في المسرح فقد كتب ثربانتس مسـرحيات قصيـرة وكوميديات، مـن بينها نذكـر: «نومانثيا»؛ «حمامات الجزائر».

تعتبـر الرواية ميـدان ثربانتـس الحقيقي، إذ إنـه يُعتبر مبدع الرواية الحديثة. فقد بدأ ثربانتس مشواره الروائي بقصة رعوية بعنـوان «جالاتيا» في العـام ١٥٨٥، غير أن رواية دون كيخوته وضعته على ذروة الأدب الإسباني.

ظهـر الجـزء الأول من رواية دون كيخوتـه في عام ١٦٠٥، والجزء الثاني في عام ١٦١٥.

دون كيخوته دي لا منشا

يقـول ثربانتـس إنه كتب رواية دون كيخوته : ”لكي يسـخر من ترهات قصص الفروسية الخيالية، غير الحقيقية“ فالكاتب كمـا يقـول: ”أراد أن يكتب عملاً فنيّاً قابلاً لتفسـيراتٍ عديدة، يعبّر عن عمق الواقع الإنساني، ومن هنا فإن هذا العمل سيبقى مع الزمن“.

إن شـخصية دون كيخوته هي رمز للمثل الأعلى الإنسـاني الـذي يصطدم بالواقع القاسـي فينتهي بالإخفـاق. إننا في هذه القصة نسـير معاً على الطريق إلى جانب دون كيخوته وخادمه سانشو بانثا لنشهد سويةً جانبين متناقضين من الوجود:

جانـب مثالي وكمالـي يمثله دون كيخوتـه؛ وجانب واقعي حقيقي يمثله حامل سلاحه سانشو بانثا.

جعفر العلوني

استهلال

عزيزي القارئ:

صدقني إذا قلت لك إنني أردت لهذا الكتاب -لأنه وليد عقلي- أن يكون أحسن وأفضل وأروع ما يمكن تخيُّله. ولكن، ما عسى أن يخلق خيالٌ فقير كخيالي، اللهم إلا قصة رجل جافٍ هزيلٍ، وُلد في سجن لا يوجد فيه إلا عدم الراحة والضجة؟

وعلى العكس، إن الراحة والطيبة، وسلام المروج، وصفاء السماوات، وخرير الينابيع وسكون الروح، تلكم أشياء ترد عقم ربات الوحي خصباً بالغاً.

فلو حدث أن كان لأبٍ ابن بشعٌ، ولكن حبه لابنه وضع على عينيه غشاوةً فلا يرى معايبه، بل على العكس يراها كلها آيات ذكاء ومفاتن يرويها لأصدقائه. وإن كنت لست أباً لدون

كيخوتـه – ولـو بدا أني أبوه حقاً– فلا أريـد أن يحدث هذا، لا أريد– عزيزي القارئ– أن أطلب منك أن تغفر لي إذا رأيت في ولـدي هذا بعـض الأخطاء، بل على العكـس، أريدك أن تقول بحرية كاملة كل ما ترغب عن هذه القصة دون أن تخشى عقاباً عما تقول.

وإنـي وددت أن أقـدم لـك هـذه القصـة دون مقدمـات أو توضيحـات عن شـخصيات هامة وكتّاب مشـهورين. ولكنني أشـعر بالحيرة. فماذا سـيكون رأي الجمهور بي عندما يراني، وأنا في هذا العمر، أكتب قصة هزيلة في الأسـلوب وفقيرة في الأفـكار؟! هذا ما قلته لصديقـي فأجابني، إذا كان غرضك من هـذا الكتاب هجاء كتب الفروسـية، فلسـت بحاجـة أن تكتب حكمـاً فلسـفية ولا مواعظاً دينيـة. يكفي أن تـودع فيه كلمات صادقـة، وتختـار مفـرداتٍ رنانـة، وأن تحـاول، أن تُضحـك الحزين، وتزيد من بهجة الضاحك، وتطرد الملل من البسطاء، وتدعو الحكماء إلى إطرائه.

وبعـد سـماع نصيحة صديقـي، ها أنا أقـدِّم إلى حضرتك–

صديقـي القـارئ- قصة الشـهير الفـارس دون كيخوته دي لا منشـا- الذي يشهد سـكان إقليم سـهل مونتيل أنه أنقى عاشق وأشجع فارس شوهد في المنطقة. وأن حامل سلاحه وخادمه سانشـو بانثا يملك مناقب مهنة الفروسية مجتمعة كلها بعد أن كانت مشتتة في كتب الفروسية.

فليحمك الله بالعافية ولا ينسني، والسلام.

الفصل الأول

عن أحوال النبيل الشهير دون كيخوته الذي يريد أن يصبح فارساً جوالاً

في ناحية من نواحي إقليم المنشا، لا أريد أن أذكر اسمها، ومن زمن ليس بعيداً، كان يعيش نبيل يملك رمحاً قديماً وترساً عتيقاً، وحصاناً هزيلاً وكلباً سلوقياً للصيد. وكان يأكل لحم البقر أكثر من أكله لحم الخروف، إضافة إلى شرائح اللحم المخللة كل عشاءٍ تقريباً، ناهيك عن البيض ولحم الخنزير أيام السبت، وبعض لحم الدجاج أيام الأحد.

وكانت تعيش في منزله خادمة تجاوزت الأربعين من عمرها، وابنة أخ لم تبلغ العشرين، إضافة إلى صبيٍّ خادمٍ يسرج الحصان ويعتني بالزرع.

وكان صاحبنا النبيل يشارف على الخمسين من العمر، كان قوياً لكنه نحيفٌ، ضامر البدن، نحيل الوجه، مولعاً بالصيد، يستيقظ باكراً جداً. ويقال إنه يلقب «كيخادا» أو «كيسادا»، فلا أحد يعرف هذا أبداً، ولكن الأرجح أن لقبه كان «كيخانا».

وكان هذا النبيل الطيب يقضي أوقات فراغه في قراءة كتب الفروسية بولعٍ وشغفٍ، بحيث إنه نسي الصيد حتى إنه نسي إدارة أمور منزله بسبب قراءة كتب الفروسية. وقد حمله حبه على قراءة كتب الفروسية، إلى بيع العديد من أراضيه ليشتري بثمنها كتب الفروسية وبذلك جمعَ ما استطاع من هذه الكتب. غير أن فارسنا المسكين فقد عقله وهو يحاول فهم هذه الكتب وما جاء بها، وكثيراً ما كان يتجادل مع قس القرية حول مسألة من كان أفضل الفرسان: بالميرين الإنجليزي؛ أو آماديس الغالي[1].

وبالمحصلة، لقد كان غارقاً في قراءاته كتب الفروسية إلى حدٍّ كان يقضي الليل والنهار. كان يقرأ كثيراً وينام قليلاً، فجف عقل صاحبنا وصار مجنوناً من كثرة القراءة، وهكذا امتلأت مخيلته بكل ما قرأه في هذه الكتب عن ألوان السحر

(١) أبطال خياليون في كتب الفروسية التي كانت تكتب في تلك الفترة.

والخصومـات، والتحـدي، والمعـارك، والحـب، والعشـق، والمغامـرات المسـتحيلة، ولم يكن في الدنيـا أصدق من هذه القصص بالنسبة له، إذ كانت تجسد له الحقيقة بعينها.

وأخيراً، وقد فقد صاحبنا عقله بشكلٍ كامل، استبدت بعقله فكـرة غريبة هي أغرب مما قد يتخيلـه مجنون في هذا الكون: أن يصبح فارسـاً جوالاً ويطوف العالم بسـلاحه وحصانه بحثاً عن المغامرات، وأن يمارس كل ما مارسـه الفرسان الجوالون فـي مغامراتهـم التي قـرأ: أن يتعـرض للأخطـار والصعوبات فينال بمجابهتها والتغلب عليها شهرة لا تزول أبداً.

كان أول ما قام به أن نظف أسلحة كان قد ورثها عن أجداده، ثم راح ليكشف على حصانه، الذي كان نحيفاً جداً، فكان كما يقـال «جلداً على عظم» ولكنه تـراءى لصاحبنا أنه فرسٌ قويٌّ لا يُقـارن بأي فرس آخـر، ولا حتى بفرس « السـيّد[1]». وراح إلى جانب هذا كله يفكر باسـم يعطيه لفرسه هذا، كما هو حال الفرسـان المشـهورين. وبعد أن فكر في الأمـر طويلاً، قرر أن يسـمي حصانه «روثينانته»، وهو اسـمٌ بدا له رناناً، يدل على ما

(١) السيّد: شخصية تاريخية شهيرة في الأدب الإسباني، اشتهر ببطولاته القتالية.

كان عليه وما صار إليه، إذ كان فرساً سابقاً فصار سابق الأفراس كلها في هذا العالم.

وبعد أن اختار اسـماً لحصانه، رغب أن يعطي لنفسه اسماً، فقضى ثمانية أيامٍ يفكر في اسمٍ لنفسه إلى أن قرر أن يطلق على نفسه اسم دون كيخوته. غير أنه تذكر أن البطل آماديس أضاف إلى اسمه اسم بلده لكي يشتهر وأطلق على نفسه اسم آماديس الغالـي، فشـاء أيضاً، على غرار كل فـارسٍ حقيقيٍّ، أن يضيف اسم بلده إلى اسمه ولهذا تسمّى دون كيخوته دي لا منشا.

واقتنـع صاحبنـا بعد هـذا كله بأنه لـم يعد ينقصه إلا سـيدة يعشـقها، ذلك أن الفارس الجوال دون عشق مَثَله مثل الشجرة بغير أوراقٍ ولا ثمار. ويقال إنه كانت تسـكن في قرية مجاورة لقريتـه فتاة فلاحة جميلـة الوجه، وكان يعشـقها منذ زمن، أما هـي فلم تكن تعـرف بوجـوده. كان اسـمها آلدونثـا لورينزو، ولكنـه استحسـن أن يطلـق عليها اسـماً يليـق بكونها السـيدة التي سـيطرت على فكره، فبحث لها عن اسـم تُشتمّ منه رائحة السـيدة والأميرة ولقبها أخيراً باسـم دولثينيا ديل توبوسو نسبة إلى القرية التي ولدت فيها.

أول خروجٍ لدون كيخوته

وبعـد أن انتهـى من تجهيزاتـه وترتيباته كلهـا، لم يرغب أن ينتظـر أكثـر من ذلك لينفّـذ ما فكّر بـه، ذلك أنّـه كان يعتقد أنّ العالـم بحاجـة إليـه لينتقـم مـن المظالـم، ويصلـح الأخطاء، ويعالج الإهانات. وهكذا، دون أن يتفوّه بحرف لأحد، استيقظ صباح يوم من شـهر تموز فأخذ ترسـه وأسـلحته، وصعد على ظهر فرسـه روثينانته، وخرج إلى الحقول سـعيداً، إذ إنه شـعر بالسّهولة التي تمّ بها البدء في تنفيذ غرضه النبيل ورغبته.

ولكنّه ما إن خطى بضع خطوات في مشـواره حتّى تذكّر أنّه لم يحصل على وسـام الفروسيّة، ووفقاً لقوانين الفروسية فإنه لا يسـتطيع، ولا يجب عليه أن يدخل في مبارزة مع أيّ فارس. لقـد كانـت هذه الأفكار على وشـك أن تصرفه عن مشـروعه، ولكن سرعان ما تغلب عليه جنونه، وقرّر أن يطلب من الفارس

الأول الذي يلقاه أن يمنحه وسـام الفروسـيّة تماماً كما قرأ في كتب الفروسية كلِّها.

اطمـأن صاحبنـا بعد أن راودته هـذه الفكرة وتابع مشـواره علـى ظهر حصانـه روثينانته عابـراً حقول سـهل مونتيل. وفي أثنـاء هـذا كان يتحـدّث مع نفسـه قائـلاً: «طوبـى للعهد الذي سـتُذكر فيه أفعالي الشّهيرة الجريئة الرّائعة لتحيا أبداً في ذاكرة الأجيـال القادمة!. وأنت أيّها الحكيـم الذي قُدِّرَ لك أن تروي هـذه الأحداث الرائعة، أتوسـل إليك ألا تنسـى فرسـي الرائع روثينانتـه، رفيق دربي في هذه المغامـرات»، ثم راح بعد ذلك يقول لنفسـه كما لو كان عاشـقاً: « وأنت يـا أميرتي دولثينيا، يا سـيدة هذا القلب الأسير! أتوسّلك أن تذكري عبدك هذا الذي برحت به الآلام حباً بك». هكذا راح يضيف إلى هذه الترّهات مئات أخرى تعلمها كلها من كتب الفروسية.

سـار اليوم كله ولم يحدث معه ما يسـتحقّ أن يذكر، فسـاءه هـذا لأنـه كان توّاقاً لأن يُظهر شـجاعته وبطولته وقـوّة ذراعه. وعند هبوط المسـاء كانا هو وحصانه متعبيـن، يكادان يموتان

جوعاً وظمـأً. راح دون كيخوته ينظر في كل الاتجاهات ليرى إذا كانـت هناك قلعة أو كوخاً للرعاة ليسـتريح فيه، ولكنه رأى فندقـاً على طرف الطريق فتوجه إليه بسـرعة قصوى. وصادف أن كان عند الباب امرأتان من اللواتي يطلق عليهن اسم «بنات الهـوى» وكانتـا ذاهبتيـن إلى إشـبيليا. ولمـا كان دون كيخوته يتخيّـل كل ما يـراه أمامه على غرار ما قرأ في كتب الفروسـية، خال هذا الفندق قصراً، وشـاهد البنتين الفاسـقتين على أنهما آنسـتان جميلتـان تتسـلّيان. أمـا السـيّدتان فلم تـكادا تبصران القـادم المسـلح على هـذا النحـو ومعـه رمحه وترسـه، حتّى عادتـا مرتاعتين إلى داخل الفندق. أما دون كيخوته فقد حاول تهدئتهما ببعض الكلمات فقال: لا ترتاعا يا صاحبتي السّعادة، فإنّ قانون الفروسية، الذي أنتمي إليه، يمنعني من أذية أحد ما، وخصوصاً إذا كانتا سيدتين جميلتين مثلكما.

عندما سـمعت الفتاتان أنه يدعوهما باسـم سـيدتين، وهذا أمر غريب عليهما، لم يتمالكا نفسـيهما من الضحك، فما كان مـن دون كيخوتـه إلا أن غضـب. وفي أثناء هـذا ظهر صاحب الفندق، الذي كان خائفاً من أن يسـتخدم دون كيخوته أسلحته بسبب ضحك الفتاتين، فقال له:

- إذا كنت تبحث عن مأوى يا سيدي الفارس، فستجد هنا كل ما ترغب به ما عدا الفراش، إذ لا يوجد ولا سرير واحد.

- أجابه دون كيخوته: أيّ شيء يكفيني يا صاحب القلعة، لأن ثيابي هي سلاحي، وراحتي هي قتالي.

وهكذا ساعد صاحب الفندق دون كيخوته على النزول عن صهوة حصانه، وقدّم له على العشاء بعض السمك. أما الفتاتان فقد اعتنيتا بدون كيخوته، وقامتا بمساعدته على خلع سلاحه. فكان دون كيخوته سعيداً بهذه الخدمة، ولكن الأمر الذي أقلقه أنه لم ير أيّ فارس مسلح لكي يمنحه وسام الفروسية. وبذلك لا يستطيع بعد أن يقوم بأية مغامرة دون أن يتلقّى مراسم الفروسية.

الفصل الثالث

دون كيخوته فارساً مُسلَّحاً

وما إن أقلقه أمر الفروسـية حتّى دعـا دون كيخوته صاحب الفندق، واقتاده إلى الاصطبل، وجثا أمامه على ركبتيه قائلاً:

- لن أنهـض أبداً عن الأرض، أيها الفـارس المقدام، إلّا إذا لبيت الأمنية التي أريد أن أطلبها منك.

لما رأى صاحب الفندق دون كيخوته على هذه الحال، قال له بأنه سيوافق، فتابع دون كيخوته قائلاً:

- لـم أكن أتوقّـع من حضرتـك غير هـذا. إنّ الطلـب الذي أرجـوه من حضرتك هـو أن تمنحني لقب فارسٍ مسـلَّح. أما أنا فسأسهر هذه الليلة، وسألمع أسلحتي، وغداً تتحقّق أمنيتي، فأسـتطيع حينئـذٍ أن أجـوب أركان الدنيا الأربعة، باحثاً عن المغامرات، ابتغاء مساعدة المحتاجين.

أدرك صاحب الفندق بسـرعة جنون ضيفه، ولكي يستمتع،

قرّر أن يسـاير دون كيخوته في جنونـه. وهكذا جعله يقتنع بأنّه علـى حق تام في هـذا الطلب، وأنَّ هذا الطلب طبيعي وهو من شـأن الفرسـان الهامين على غرار صاحبنا دون كيخوته. وقال له إنّ قلعته ليس فيها كنيسـة ليرعى السـلاح بـه وينظفه، ولكنّه يسـتطيع أن يقـوم بذلـك في فنـاء القلعة، ومع حلـول الصباح سيقوم بالمراسم المناسبة لهذا الحدث.

سـأل صاحب الفنـدق دون كيخوتـه إذا كان يملـك نقوداً، فأجابـه بأنّه لا يحمل ولا قطعة نقدية واحـدة، ذلك أنّه لم يقرأ أبداً في كتب الفروسية أنَّ الفرسان الجوالين يحتاجون النقود. فـرد عليه صاحب الفنـدق أن هذا ليس صحيحـاً، وأنه لم يقرأ ذلـك في كتب الفروسـيّة لأنـه أمرٌ طبيعي واضـح وليس هناك داعٍ لذكره. إضافة إلى ذلك فقد اعتاد الفرسـان الجوّالون أيضاً أن يحملوا معهم صندوقاً أسود يحتوي على المراهم لمعالجة الجـروح التـي يصابـون بها في المعـارك، فقـد لا يصادف في الصحـارى والحقول التي يتعاركون فيهـا أن يوجد من يداوي لهم جراحهم.

وعد دون كيخوته صاحب الفندق أن يستجيب لكل ما قاله

له بدقة كاملة، وشـرع بعد ذلك ينظف الأسـلحة، ويلمِّعها في فناء الفندق الكبير. وهكذا جمع دون كيخوته أسلحته ووضعها على حوض إلى جوار بئر.

في أثناء هذا أراد أحد البغّالين أن يسـقي دابته، ولكي يفعل ذلك كان عليه أن يرفع أسلحة دون كيخوته عن الحوض، فلما رآه كيخوته قال له:

- أنـت، أيّهـا الفارس الجريء الذي تلمس أسـلحة أشـجع فـارسٍ جوال، حذار ممّا تفعل، ولا تلمسـها إذا شـئت ألا تخسر حياتك ثمناً لتهوّرك.

لـم يأبه البغـال بما قالـه كيخوته، فألقـى بالأسـلحة بعيداً، فمـا كان من دون كيخوته إلا أن حمـل رمحه وضرب به رأس البغال، فأسقطه أرضاً في أسوأ حال. وجمع أسلحته وأستأنف التجوال كما كان يفعل سابقاً.

بدأ رفاق البغال الذين رأوا ما حدث يرشـقون دون كيخوته بالحجارة، فما كان من صاحب الفندق إلا أن أوقفهم، وشـرح لهم جنون دون كيخوته.

وأخيـراً اقترب صاحـب الفندق مـن دون كيخوته، وأخبره

بأنَّ الوقت قد حان ليعلنه فارساً مُسلَّحاً في منتصف الفناء.

حمل صاحب الفنـدق كتاباً في يده وكان يرافقه فتىً يحمل شـمعة، إضافة إلـى الفتاتين المعروفتين. أمـر صاحب الفندق دون كيخوتـه أن يجثـو علـى ركبتيـه وراح يتلـو عليـه بعـض الكلمـات كما لـو كانت صلوات. وفـي أثناء القـراءة رفع يده وصفعـه على عنقه صفعة قوية. ثم أمر إحدى الفتيات أن تضع له السيف على خصره وبينما كانت تفعل ذلك قالت له:

- جعل الله حضرتك فارساً سعيداً قويّاً منتصراً في المعارك.

سـأل دون كيخوتـه الفتـاة عـن اسـمها، فأجابته أن اسـمها تولوسـا، فرجاهـا دون كيخوتـه أن تضيـف إلـى اسـمها لقب السـيدة تولوسـا كما يليق بها. وحصل مع الفتاة الأخرى الأمر نفسـه، إذ كان اسـمها مولينيرا، فرجاهـا دون كيخوته أن تلقِّب نفسها السيدة مولينيرا.

وهكـذا بعـد أن انتهت مراسـم تسـليح الفـارس جهّز دون كيخوتـه حصانـه روثينانتـه، وعانـق صاحب الفنـدق الذي لم يطلب منه نقوداً وغادر الفندق.

الفصل الرابع

دون كيخوته يمارس فعله البطولي الأول

غـادر دون كيخوتـه الفنـدق مـع حلـول الفجر وهو سـعيدٌ راضٍ، إذ رأى نفسـه الآن فارسـاً مُسـلَّحاً. غير أنّه قرر أن يعود إلى منزله لينفّذ ما قاله له صاحب الفندق، فيحضر معه قمصاناً ونقـوداً، كما أنه فكـر أن يحضر معه هذه المرة خادماً يحمل له متاعه وأسلحته. كان يفكّر بفلاحٍ جاره، كان فقيراً ولديه أولادٌ، فقرر دون كيخوته اختياره ليساعده في حمل أسلحته.

وما إن عقد دون كيخوته العزم على ذلك حتى قاد روثينانته ناحيـة القرية، فما كان من روثينانته إلا أن ركض بنشـاط وكأنّ أقدامه لا تمسّ الأرض بل السماء.

ولـم يكـن دون كيخوتـه قد قطع مسـافة طويلة حتى سـمع صوتـاً قادمـاً مـن أعمـاق الغابة، وقـد خُيِّل له أنّـه صوت أحد

يشتكي وهو بحاجة إلى المساعدة، وما إن سمع ذلك حتى صاح:

- أشكرك أيها الإله على هذه النعمة، فأخيراً قد أرسلت لي فرصة لأداء واجبي في مهنتي هذه. إنّ هذه الأصوات من دون شك هي أصوات محتاج يحتاج إلى مساعدتي.

اقتاد كيخوته روثينانته إلى مصدر الصوت، وما إن خطى بضع خطوات حتى رأى صبياً لا يتجاوز الخامسة عشرة مربوطاً إلى شجرة وكان عارياً من رأسه إلى خصره وهو يبكي ويصرخ. وكان إلى جانبه فلاح يؤدّب الولد بسوط جلديٍّ، وكان مع كلّ جلدة يجلد فيها الصبي يقول له على شكل نصيحة:

- أغلق فمك، وافتح عينيك.

والصّبي يجيبه:

- لن أفعل ذلك مرة أخرى يا سيدي، أعدك أن أنتبه أكثر إلى القطيع في المرة المقبلة.

وما إن رأى دون كيخوته هذا حتّى صاح بغضبٍ شديد:

- أيّها الفارس الوقح، لا يليق بك أن تضرب من لا يستطيع

الدِّفاع عن نفسه. هيا اصعد على صهوة حصانك وخذ رمحك، وسأعلمك أن فعلك هذا هو فعلٌ جبان.

عندما رأى الفلاح هيئة دون كيخوته وهو يحمل السلاح ويتقدم إليه، ظنَّ أنّه سيقتله فقال له بكلماتٍ عذبة:

- يا سيدي الفارس! إنَّ هذا الصبي الذي تراني أعاقبه إنّما هو خادمي، وإني أعاقبه على كسله وعدم عنايته بقطيع الغنم فكل يوم أفقد واحدة. وهو إضافة إلى ذلك يكذب ويقول إنني لا أعطيه أجره!

- هو لا يستطيع أن يكذب أمامي - هكذا أجابه دون كيخوته - كيف يمكنك أن تفعل هذا بحقّ السماء؟ هيّا بسرعة فكّه وحلّ وثاقه، وأعطه أجره إذا أردت أن تنجو من ضربة رمحي.

أخفض الفلاح رأسه، ولم ينطق بأيّة كلمة، وأسرع بحلّ وثاق خادمه الصبي ثم قال لدون كيخوته:

- المشكلة أنّني لا أحمل معي نقوداً الآن يا سيدي الفارس. فليأت أندريس - وهو اسم الصبي - معي إلى المنزل وسأدفع له النقود كلها.

- أذهبُ معه؟ – قال الصبي – كلا، كلا يا سيدي، إنه لو انفرد بي لسلخ جلدي حيّاً.
- كلا لن يفعل ذلك – قال دون كيخوته – يكفي أن آمره لكي يطيعني ويحترمني، كما أنّه سيُقسم لي بقسم الفروسية.
- انظر يا سيدي – قال الصبي – إنَّ سيدي ليس فارساً ولايعرف شيئاً عن قسم الفروسية. إنه خوان هالدودو الغني من أهالي قنطنار[1].
- هذا لا يهم – أجابه دون كيخوته – قد يكون أحد أبناء هالدودو فارساً، فكلّ امرئ ابن لأعماله.
- هذا صحيح – أجاب أندريس – ولكن ابن أيّ أعمال سيدي هذا الذي يرفض أن يعطيني ثمن عرقي وتعبي؟
- أنا لست ممتنعاً عن الدّفع يا عزيزي أندريس – قال الفلاح – تعال معي وأنا أقسم لك بكل أنظمة الفروسية الموجودة في الدنيا أني سأدفع لك.
- هذا كل ما أطلبه منك – قال كيخوته – وإن لم تفعل ذلك أقسم إني سأبحث عنك وأعاقبك أشد العقاب. ولتعرف

(١) مدينة في مقاطعة طليطلة في إسبانيا. (المترجم)

إنني الفارس الشجاع دون كيخوته دي لا منشا مصلح الأخطاء ومنصف المظلومين.

قال دون كيخوته هذا وانصرف على ظهر روثينانته، أما الفلاح لما رأى دون كيخوته يختفي، عاد إلى الصبي أندريس وقال له:

- تعال هنا يا بني، فأريد أن أدفع لك دينك، كما أمرني مصلح الأخطاء ومنقذ المظلومين.
- حسناً تفعل بحقّ الآلهة يا سيدي ما أمرك به هذا الفارس الطيب، وإلا عاد وقام بتنفيذ قسمه.
- وأنا أيضاً أقسم لك!

ثم اقترب الفلاح من أندريس وأمسك ذراعه وعاد يوثقه على الشجرة وبدأ يضربه ضربات تركته كالميت وهو يقول له:

- ناد الآن يا سيد أندريس مصلح الأخطاء، ولترى إذا كان بإمكانه أن يصلح هذا.

وأخيراً فك وثاقه وأطلق سراحه ليبحث عن قاضيه، فمضى الصبي وهو يبكي غضباً، بينما ظلّ الفلاح ضاحكاً.

هكذا أصلح الشجاع دون كيخوته الضرر الذي وقع، وكان ماضياً في طريقه سعيداً بما حدث فأخذ يقول لنفسه:

- تستطيعين أن تعدّي نفسك أسعد نساء الأرض يا أميرتي دولثينيا، لأن في خدمتك أشجع وأشهر فارس هو دون كيخوته دي لا منشا.

وبينما كان يسير في الطريق اكتشف حشداً كبيراً من الناس، وقد كانوا تجاراً من مدينة طليطلة في طريقهم إلى مرسية لشراء الحرير. وما إن رآهم دون كيخوته حتى توهم أنه إزاء مغامرة جديدة كما قرأ في كتب الفروسية.

متوهماً دون كيخوته أنّ هؤلاء التجار فرسان جوالون، أمسك جيداً بفرسه ورمحه ووقف في منتصف الطريق وما إن اقترب التجار من دون كيخوته حتى به يصيح بصوتٍ قوي:

- فليقف كل واحد منكم في مكانه إذا لم يعترف أنَّ ليس في الدنيا بأسرها فتاة أجمل من إمبراطورة المنشا الفريدة دولثينيا ديل توبوسو.

عند ما سـمع التجار ورأوا هذا المنظر الغريب توقّفوا وقال واحدٌ منهم:

- سـيدي الفارس، نحن لا نعرف من هي هذه السيدة الطيبة التي تقول عنها هذا. دعنا نراها، فإن كانت جميلة إلى هذا الحد الذي تصف، فسنعترف عن طيب خاطر بذلك.
- أريكـم إيّاهـا- أجـاب دون كيخوتـه- فـأيُّ فضـل لكـم إذاً بالاعتـراف بحقيقـة واضحـة كل الوضـوح؟ المهـم أن تعتقـدوا بجمالهـا دون أن تروهـا، وأن تؤكِّـدوا ذلـك وتدافعوا عنه؛ أما إن لم تفعلوا فاستعدّوا لقتالي.
- سـيّدي الفـارس- أجـاب أحـد التجـار- نلتمـس مـن حضرتك، كي لا نخطئ في تأكيد شـيء لم نره ولم نسمع بـه، أن تقدمـوا لنا صورة لهذه السـيدة، وحتى لو بدت في هذه الصورة عوراء، فإننا سنقول بها ما يرضي خاطركم.

فصاح دون كيخوته بغضبٍ شديد:

- ليسـت عـوراء ولا حدبـاء أيّهـا الحقيـر، بـل هي شـديدة

الاستقامة. والآن ستدفعون ثمن كذبكم هذا الذي نطقتم به أمام جمال سيدتي!

ما إن انتهى من قول هذا حتى هجم دون كيخوته على من نطق بهذه الكلمات برمحه بحماسة وعنفوان، فلو لم يتعثر روثينانته ويسقط صاحبه على الأرض لكان قتل ذلك الرجل.

حاول دون كيخوته أن يقف مجدداً، لكنّه كان مثقلاً بسيفه ورمحه وترسه، فلم يستطع وإذ به يصرخ:

- لا تهربوا أيّها الجبناء، فلقد سقطت أرضاً بسبب حصاني.

لكن أحد خدم البغال من أتباع التجار سئم من سماع شتائم دون كيخوته، فراح إليه وكسر رمحه إلى قطع صغيرة، وهوى بضرب صاحبنا دون كيخوته بشدة وقسوة فلم يستطع النهوض لأن بدنه كان كلّه متكسراً.

الفصل الخامس

دون كيخوته يعود إلى قريته

ومـا زال دون كيخوتـه على هـذه الحال بـالأرض حتى مر بالقـرب منه فلاح من قريته كان جاراً له. وما إن رآه مُلقىً على الأرض حتّى توقّف ليساعده، وإذا به يكشف عن وجهه وينظفه من الغبار الموجود عليه ويعرفه، فيقول له:

- يا سـيّد كيخانا- كما كان يسمّى قبل أن يفقد عقله ويصبح فارساً جوالاً- من فعل بك هذا يا سيدي؟

غيـر أنَّ دون كيخوتـه كان غارقـاً بخياله، ولـم يـرد عليه بأيّة كلمة. فقام الفلاح المسـكين برفعه عن الأرض، ووضعه على حماره، بعد أن جمع أسـلحته وعتاده ووضعها على روثينانته، واتّجـه في طريقه إلى القرية. في الطريق إلى قرية دون كيخوته راح كيخوتـه ينـادي الفلاح مـرةً رودريغـو دي ناربايـز، ومرة أخـرى ماركيـز دي مانتوا، فمـا كان من الفـلاح إلا أن ردّ على

هـذا الجنون قائلاً لدون كيخوته، الذي راح يسـمّي نفسـه تارة فالدوبينوس، وتارةً أخرى ابن إدريس:

- انظر يا سيدي، فأنا لست رودريغو دي ناربايز، ولا ماركيز دي مانتـوا، أنـا بيـدرو ألونسـو، جـارك، كمـا أنك لسـت فالدوبينـوس ولا ابـن إدريس، بل حضرتك السـيد النبيل كيخانا.
- أعـرفُ من أنا جيـداً - أجاب دون كيخوتـه- وأعرف أني أسـتطيع أن أكون ليس من ذكرت فحسـب، وإنما أستطيع أن أكـون كأبطـال فرنسـا الاثني عشـر، لا بل أسـتطيع أن أتجاوز بطولاتهم أيضاً.

وعندمـا وصلا إلى القرية كان المسـاء قد حـلَّ، فدخلا إلى منـزل دون كيخوته، حيـث كان هناك قس القريـة بيدرو بيريز، وحـلّاق النّاحيـة نيكـولاس، وكانـا صديقين حميمـين لدون كيخوته.

كان القسّ وحلاق القريـة يتحدّثان مع ابنة أخ دون كيخوته وخادمتـه حـول غيابه عن المنـزل، وعن قراءاته السـيئة لكتب الفروسية، التّي سبّبت له فقدان عقله.

- لقد مضت ثلاثة أيـام ولـم يظهر هو ولا الحصان ولا حتى الأسـلحة! قالت الخادمة-. المشكلة كلّها تعود إلى كتب الفروسيّة التي يقرؤها. لقد جعلته مجنوناً. الآن أتذكّر أنني سـمعته يقول مرةً إنه يريد أن يصبح فارسـاً جـوّالاً يبحث عن المغامرات في أركان الأرض.

وقالت ابنة أخيه الشيء نفسه وأضافت:

- اعلم يا سيد نيكولاس أنّ عمي قضى وقتاً طويلاً وهو يقرأ كتـب الفروسـية، وعندما ترك هذه الكتب، حمل السـيّف وراح يقاتـل الجدران، ويدّعي أنّه قتل أربعة من المَرَدة[1]. ولكـنَّ الذنب في هـذا هو ذنبي، ذلك أنني لـم أسـارع إلى إعلامكم بهذه الترهات، لكي تحرقوا هذه الكتب اللّعينة.
- هـذا ما أعتقـده أنا أيضاً- قـال قس القرية- وغداً سـنرمي بهذه الكتب في النار لكي لا يصاب أحدٌ آخر بهذا الجنون الذي أصاب صاحبنا.

كان دون كيخوتـه والفـلاح يسـمعان كل مـا قيـل، فـأدرك الفلاح جنون دون كيخوته، وصرخ بصوت عال:

---

(١) المردة جمع كلمة مارد- المترجم-.

- فلتفتحوا الباب لحضرة السيّد فالدوبينوس والسيد ماركيز مانتوا، فقد أحضر لكم ابن إدريس مجروحاً.

عند سماع هذا الصّوت خرج الجميع وحضنوا دون كيخوته فقال:

- توقّفوا في أماكنكم، فأنا جريحٌ بسبب حصاني. انقلوني إلى غرفتي ولتنادوا، إذا كان ذلك ممكنا، للحكيمة أورغندا لكي تداوي لي جروحي.
- فلتصعد حضرتك – قالت الخادمة– فعلى الرّغم من عدم وجود هذه الحكيمة إلّا أنّنا سنعالج جراحك هنا.

وهكذا تمّ نقل دون كيخوته إلى سريره، وبعد أن أكل، خلد إلى النوم الذي كان يحتاجه أكثر من أي شيء آخر.

الفصل السادس

القس والحلاق يحرقان كتب دون كيخوته

في اليوم التالي، وبينما كان دون كيخوته غارقاً في نومه، وصل الحلاق وقس القرية إلى منزل دون كيخوته، وطلبا من ابنه أخيه مفاتيح الغرفة التي فيها كتب الفروسية، وصعدوا جميعاً إليها. هناك وجدوا أكثر من مئة كتاب كبير الحجم، جيّد التجليد، إضافة إلى طائفة أخرى من الكتب الصغيرة.

وما إن رأت الخادمة هذه المكتبة، حتّى ذعرت من أن يكون في الغرفة ساحرٌ من أولئك الذين تغصّ بهم كتب الفروسية، فيسحرنا عقاباً لنا على ما نفعله.

ضحك الكاهن من سذاجة الخادمة، وطلب من الحلاق أن يعطيه الكتب واحداً بعد الآخر، حتى يرى ما فيها، فلعلّ بعضها لا يستحق الرمي في النار.

- كلّا– قالـت ابنة الأخ – لا ترحموا واحداً من هذه الكتب، فهي سـبب جنون عمي، والأفضـل أن نلقي بها جميعاً في النار، أو نحملها إلى الحوش، وهناك نضرم بها النار.

كانـت الخادمـة من الـرأي نفسـه، ولكـن الكاهـن أراد أن يقـرأ عناويـن هذه الكتب علـى الأقل. وأول كتـاب أعطاه إياه الحلاق، كان كتاب آماديس الغالي، فقال قس القرية:

- وفقاً لما سـمعت فإنَّ هذا أول كتب الفروسية التي طبعت في إسبانيا، لذلك فمن الواجب أن نرمي به في النار، إذ إنه الكتاب المؤسِّس لهذه المجموعة اللّعينة.
- كلا يـا سـيّدي- قـال الحـلاق- فلقـد سـمعت أنـه أفضـل كتـب الفروسـية وأحسـنها، ولذلـك يجـب أن نحافظ عليه.
- معك حق – قال القس– لنر الآن هذا الكتاب المجاور له.
- إنـه كتـاب "بطـولات إسـبالدين" وهـو الابـن الشـرعي لآماديس الغالي – قال الحلاق.
- لا تزرِ وازرة وزر أخرى– قال القس–. خذيه أيتها الخادمة وارمي به إلى الحوش لحرقه.

وأخيراً تعب القسّ من كثرة ما نظر من عناوين كتب، فطلب من الخادمة أن ترمي بجميع الكتب الكبيرة إلى الحوش. أما هي فكانت متحمسةً جداً إلى ذلك، فجمعت ثمانية كتب دفعة واحدة وألقت بها. وهكذا لم يبق أمامهم إلا الكتب الصغيرة.

- فسأل الحلاق ماذا نفعل بها؟
- فأجاب الكاهن، لعل هذه الكتب الصغيرة ليست كتب فروسية، وإنما كتب شعر، وهي لا تستحق أن تحرق كبقية الكتب، ذلك أنها لا تؤذي ولا تضر ككتب الفروسية.
- كلا يا سيدي – قالت ابنة الأخ– يا حبذا لو تأمر بحرقها جميعاً، ذلك أن الأمر سيصبح أسوأ إذا قرأ عمي هذه الكتب وأراد أن يصبح شاعراً، فهذا مرض لا يمكن الشفاء منه أبداً.
- إنَّ هذه السيدة تقول الحقيقة– قال القس– والأفضل أن نحرقها جميعها لكي نضيِّع عليه فرصة أن يمرض مرةً ثانية.

الفصل السابع

الخروج الثاني لدون كيخوته

وبينما كان القس والحلاق يتناقشان حول عناوين الكتب التي يجب حرقها، سمعوا دون كيخوته يصرخ بصوتٍ عالٍ:

- هنا هنا أيها الفرسان الشجعان؛ تعالوا إليَّ لأرى قوّتكم وقوّة ذراعكم.

ذهب كل من القس والحلاق لرؤية دون كيخوته، وإذ به مستيقظاً من سريره يصرخ بصوتٍ عالٍ ويضرب بالهواء في كل جانب كأنه يبارز أحداً ما. ركضوا إليه ومسكوا به، وأعادوه من جديد إلى السرير. أعطوه شيئاً يأكله ثم خلد مجدداً إلى النوم.

فكر الحلاق والقسّ بإغلاق الغرفة التي تحتوي على كتب الفروسية وذلك لكي لا يعود دون كيخوته لرؤيتها مجدداً. وكانوا يفكرون أن يقولوا له إن ساحراً ما قد أخذها. وهذا ما فعلوه حقاً.

استيقظ دون كيخوته بعد يومين من النوم، وأول ما قام به كان الذهاب ليرى كتب الفروسية. ولكنّه لم يجد الغرفة ولا كتب الفروسية، وعندها استغرب ذلك فسأل الخادمة عن الغرفة وعن الكتب التي كانت بداخلها فأجابته الخادمة:

- أية غرفة تقصد يا سيدي؟ فليست هناك غرفة ولا كتب في هذا المنزل، ذلك أن شيطاناً أتى وأخذها.
- لم يكن شيطاناً- قالت ابنة أخيه- بل ساحراً كبيراً أتى في إحدى الليالي راكباً على غيمة، فدخل الغرفة دون أن نعرف ما فعل بها، وبعد وقت خرج منها تاركاً غباراً كثيفاً مكانه عبر السقف. وعندما غادر لم يترك في المنزل غرفة ولا كتباً، وبينما كان الساحر يحلق بعيداً، كان يقول بصوتٍ مرتفع إنّه قام بهذا الفعل وذلك بسبب العداوة السرية مع صاحب هذه الكتب، وأن اسمه هو موناتون.
- فريستون تقصدين؟ قال دون كيخوته.
- لا أعرف – أجابت الخادمة- إذا كان اسمه فريستون أو فريتون. ما أعرفه أن اسمه ينتهي بـ "تون".
- هكذا إذاً – قال دون كيخوته- إنه ساحرٌ حكيم، وهو من

أشـد أعدائي، وإنه يعاديني لأنني سأنازل ذات يوم فارساً، يعطف هو عليه، وسـأهزمه دون أن يتمكن من فعل شيء. ولهذا السـبب لا يـزال يحاول أن يوقع بي كل ما يسـتطيع من أضرار.

- أوليـس من الأفضل لك أن تبقى في منزلك دون أن تخرج بحثاً عـن المغامرات في أركان الدنيا؟ - قالت ابنة الأخ- فالإنسان قد لا يستطيع تحقيق ما يرغب دائماً.

وهكذا بقي دون كيخوته مدة خمسـة عشـر يوماً في المنزل هادئـاً، دون أن تبـدر منـه بادرة تـدل على أنه يريد أن يسـتأنف جنونه الأول.

وفـي تلك الأثناء اسـتدعى دون كيخوته أحد جيرانه، وكان رجلاً طيباً فقيراً غبياً بعض الشـيء. ومن كثرة ما كلّمه ووعده، وافـق الرجـل العمـل مـع دون كيخوتـه كحامل سـلاح. وقد وعـده دون كيخوتـه أنه سـيجعله حاكم جزيرة. بهـذه الوعود وافق سانشـو بانثا، وهو اسم الفلاح، أن يترك زوجته وأولاده، ويتحول إلى حامل سلاح لجاره دون كيخوته.

وكان دون كيخوتـه قـد أمر سانشـو بأن يحضر معـه نقوداً، وأن يحضر معه خرجاً، فوعده سانشو بذلك، وقال له أيضاً إنه سـيحضر معه حماره الجيد الذي يمتلكه، ذلك أنه لا يسـتطيع أن يمشي طويلاً على قدميه.

وعندما تم كل شـيء، لم يودع سانشـو زوجتـه ولا أولاده، ولا دون كيخوته خادمته وابنة أخيه، بل خرجا فجأة ذات مساء من القرية دون أن يراهما أحد.

سار سانشو ممتطياً حماره ومعه خرجه والماء الذي يحمله ومعه أيضاً رغبة حارة بأن يرى نفسـه حاكماً على الجزيرة التي وعده بها سيده. وهكذا راح يقول لسيده:

- انظر يا سـيدي العزيز، أتمنى ألا تنسـى حضرتك الجزيرة التـي وعدتنـي بهـا، إذ مهمـا كان كبرها فإنني أسـتطيع أن أتدبر أمرها جيداً.

فأجابه دون كيخوته قائلاً:

- ينبغـي أن تعلم، يا صديقي سانشـو بانثا، أنـه جرت العادة أن يقوم الفرسان الجوالون بتعيين حملة أسلحتهم حكاماً



علـى الجزر والممالك التي يسـتولون عليها. وإني لسـائر على هـذه العـادة. ولتعلم أيضـاً، علاوة على ذلـك، أنني أسـتطيع أن أستولي على مملكة في ستة أيام وأصبح ملكاً عليها.

فأجاب سانشو بانثا قائلاً:

- علـى هذا لـو أصبحت ملكاً بمعجزة مـن المعجزات التي تقـول، فإن زوجتـي، خوانا غوتيرث، سـتصير على الأقل ملكة وأولادي أمراء.
- وهل ثمَّة من يشك في هذا؟ أجابه دون كيخوته.
- فأجابه سانشـو: أنا أشـك فـي هذا. لا يناسـب زوجتي أن تصبح ملكةً، وأنسب لها أن تصبح كونتيسة.

فأجابه دون كيخوته:

- سلم الأمر لله يا سانشو فهو سيعطيها ما يناسبها.

الفصل الثامن

طواحين الهواء

وفي هذه اللحظة اكتشفا ثلاثين أو أربعين طاحونة هوائية في هذا السهل، وما إن رآها دون كيخوته حتى قال لسانشو:

- إن الحظ يسيِّر أمورنا خيراً مما ظننت، فانظر هناك يا صديقي سانشو حيث يوجد ثلاثون أو أقل مارداً عملاقاً. أرى أن أنازلهم وأسلبهم حياتهم جميعاً وبالغنائم التي نحصل عليها نبدأ ثروتنا.
- فسأله سانشو بانثا: أي مردة؟
- أولئك الذين تراهم أمامك - أجابه سيده- بأذرعهم الطويلة، إذ يبلغ طول بعضهم قرابة الفرسخين.
- انظر حضرتك- قال سانشو- إن ما ترى أمامك يا سيدي ليست مردة، بل طواحين هواء، وما يبدو لك أنه ذراع ليس إلا أجنحة الطواحين التي يديرها الهواء.

- فأجابـه دون كيخوتـه قائلاً: من الواضح أنك لسـت خبيراً بشؤون المغامرات: هذه مردة عملاقة، أما إذا كنت خائفاً، فاذهب للصلاة ريثما أنازلها في معركة غير متكافئة.

وبينمـا كان يقول هذا، ضرب فرسـه روثينانتـه وهو يصرخ قائلاً:

- لا تهربي أيتها المخلوقات الجبانة، فإن من يهاجمك ليس إلا فارساً واحداً فحسب.

وتصـادف فـي تلـك الأثنـاء أن هبّت ريـح قويـة فتحركت أجنحة الطواحين، وعندما رأى دون كيخوته ذلك صرخ قائلاً:

- حتى لو حركتم كل أذرع العالم فستدفعون الثمن غالياً.

وهكـذا اندفـع دون كيخوتـه بأقصـى قوتـه مشـرعاً رمحـه وهاجـم أول طاحونـة هـواء كانـت أمامـه برمحـه، ولكنه في اللحظـة التي ضرب فيها جناح الطاحونـة برمحه، دفعته الريح بعنف فانكسـر رمحه، وارتمـى أرضاً يتدحرج هو والفرس في أسـوأ حال، فأسرع سانشـو إلى نجدته ولما بلغه، وجده مُلقىً أرضاً، لا يسـتطيع الحراك، لأن السـقطة كانت شـديدة فصاح سانشو:



- يـا اللـه! ألم أقل لـك يا سـيدي أن تأخذ حـذرك مما أنت فاعل، فما هذه التي تراها إلا طواحين هواء؟
- اصمت يا سانشو – أجابه دون كيخوته– فإنَّ أمور الحرب تتقلّب باستمرار، وخصوصاً أنني أرى أن الساحر الحكيم فريسـتون الذي سرق كتبي هو الذي حوّل هذه المردة إلى طواحين هواء ليحرمني شرف الانتصار عليها. ولكن فعله الشرير لن يهزم في نهاية الأمر طيبة سيفي.
- فأجابه سانشو: إنها مشيئة الله، وليفعل الله ما يشاء.

بعـد هـذا سـاعده سانشـو علـى النهـوض وامتطـاء صهوة روثينانته وتابعا سيرهما وهما يتحدثان في الأمر، فانتبه سانشو أن وقت الطعام قد حان، فأجابه دون كيخوته أنه لا يشتهي شيئاً الآن، أما هو فيسـتطيع أن يأكل ما يشـاء. وهكذا مضى سانشو يسير على ظهر حماره خلف سيده وهو يأكل لقمة إثر لقمة.

وأخيراً أمضيا تلك الليلة بين الأشجار، أما دون كيخوته فلم يسـتطع النوم وهو يفكر في سـيدته دولثينيا، ليعمل حسبما قرأ في كتب الفروسية، ولكنَّ سانشو قضى الليلة كلها نائماً.

وفي الصباح استأنفا السير في طريق قرية بويرتو لابيثي، وإذ بهما يصادفان قديسين وهما يركبان بغلين، وخلفهما سارت عربة مع بعض الخدم، وكانت في داخل هذه العربة سيدة من إقليم البسك في طريقها إلى إشبيليا. ولم يكد دون كيخوته يرى ذلك حتى قال لسانشو:

- إما أن أكون مخدوعاً، أو إننا في صدد أروع مغامرة شهدها إنسان؛ لأن تلك الكتل السوداء التي تتحرك هناك هي سحرة تسوق داخل العربة أميرة كانوا قد سجنوها.
- يبدو لي أن هذا أسوا من الطواحين الهوائية- قال سانشو- انظر يا سيدي أولئك رهبان والعربة لا بدَّ أن تكون لأناسٍ في رحلة.
- كما قلت لك يا سانشو- أجابه دون كيخوته- إنك لا تعرف كثيراً في أمور المغامرات، ما أقوله أنا هو الحقيقة وسوف ترى ذلك.

همز دون كيخوته روثينانته واندفع برمحه باتجاه الراهبين، فوقع أحدهما ولاذ الآخر بالفرار خوفاً. أما سانشو فما إن رأى الراهب سقط على الأرض حتى هجم عليه وراح يسلبه ثيابه اعتقاداً منه أنها غنائم المعركة التي انتصر فيها سيده.

فلما رأى الخدم الذين كانوا برفقة الراهبين دون كيخوته قد ذهب ليكلّم السيّدة التي كانت في العربة، هجموا على سانشو وطرحوه أرضاً من كثرة الضرب، أما دون كيخوته كان يقول للسيدة داخل العربة:

- سيدتي الجميلة، إن من اختطفوك هم الآن طرحى الأرض بفضل قوة ذراعي. ولتعرف حضرتك أن اسمي هو دون كيخوته دي لا منشا الفارس المغامر والجوال، خادم سيدة الجمال دولثينيا ديل توبوسو، وثمناً للمساعدة التي قدمتها لك، أسألك أن تذهبي إلى توبوسو وأن تقدمي نفسك لسيدتي وأن تروي لها ما فعلت من أجل رد حريتك إليك.

وكان أحد الخدم المسلحين يسمع كل ما قاله دون كيخوته للسيدة فاقترب منه وأمسك برمح دون كيخوته قائلا له:

- اذهب أيها الفارس، فإن لم تترك العربة وشأنها لكان موتك مؤكداً على يدي.

استلَّ دون كيخوته سيفه وهجم على الخادم، فلما رآه الخادم على هذا النحو استلَّ هو الآخر سيفه وانقضَّ كل منهما على الآخر، وبقي الاثنان على هذه الحال يتعاركان

وقتاً طويلاً إلى أن تمكّن دون كيخوته في نهاية الأمر من طرح غريمه أرضاً وهو ينزف دماً من كل جسمه، وما إن سقط أرضاً حتى تقدّم نحوه دون كيخوته واضعاً السيف على عنقه صارخاً فيه أن يستسلم.

في أثناء هذا نزلت السيدة من العربة، واقتربت من دون كيخوته طالبةً منه أن يعفو عن خادمها، فأجابها دون كيخوته بنبرةٍ جدّيّة:

- بكلّ سرورٍ يا سيدتي سأنفّذ ما تطلبينَه منّي ولكن بشرطٍ واحد: أن يذهب هذا الفارس إلى توبوسو ويقدم نفسه بالنيابة عني للسيّدة دولثينيا لتتصرّف في أمره كما تشاء.

وعدت السيدة دون كيخوته أن ترسل خادمها ليفعل ما قاله دون كيخوته فأجابها قائلاً:

- بحقّ وعدك هذا لن أمسّه بأذى مع أنه يستحقّ أكثر من ذلك بكثير.

الفصل التاسع

الحوار بين دون كيخوته وسانشو بانثا حامل سلاحه

كان سانشـو قد نهـض، بعد أن ضربه الخـدم، وراح يراقب المعركـة بين سـيده دون كيخوتـه والخادم، وهـو يدعو ربّه أن ينتصـر سـيّده ليربح الجزيرة وينصبه حاكمـاً عليها كما كان قد وعده. فلما انتهت المعركة أسـرع سانشـو إلى سـيده ليساعده في الصعود على صهوة روثينانته وقبّل يده قائلاً لدون كيخوته:

- الآن تستطيع يـا سـيدي أن تهبنـي حكـم الجزيـرة التـي انتصـرت بها فـي هذه المعركة، فإنني أشـعر بقـدرة كبيرة على حكمها كما يفعل حكّام الجزر عادةً.

فأجابه دون كيخوته:

- انتبـه يا عزيزي سانشـو، إنّ هـذه المغامرة ليسـت مغامرة

جـزر، وإنمـا هـي مغامـرة طريق عابـر، لا ينـال المرء من وراثها إلا أن يخرج مكسور الرأس أو مقطوع الأذن. اصبر يا سانشـو فسـتعترض طريقنا مغامرات كثيرة أسـتطيع أن أنصّبك من خلالها لا حاكماً فحسب، بل أكثر من ذلك.

وهكذا ركب دون كيخوته على حصانه وسانشو على حماره ودخلا في غابة. وفي أثناء هذا سأل دون كيخوته سانشو:

- قل لي يا سانشو هل رأيت أو سمعت بفارسٍ أقوى وأشجع مني على وجه الأرض؟ هل قرأت في التاريخ أنَّ هناك من هو أقوى منّي في الهجوم؟
- الحقيقـة أنـي لـم أقـرأ أي تاريخ- أجابه سانشـو- لأني لا أعـرف القـراءة ولا الكتابة. ولكنني أسـتطيع القـول إنني لم أخدم فارسـاً أشـد من جنابـك قوةً! والآن أتوسّـل من حضرتك أن تعالج أذنك لأن الدم يسيل منها كثيراً.
- إن هذا ليس بالأمر الصعب – أجابه دون كيخوته- ولكنني لو تذكّرت أن أحضر معي زجاجة بلسـم فيرابراس، فقطرة واحدة فقط تكفي لمعالجة جميع الأمراض.
- وأي بلسمٍ هذا يا سيدي؟ سـأل سانشو

- بفضل هذا البلسم لا يخاف المرء حتى من الموت – أجابه دون كيخوته– لذلك عندما أحضره سأعطيك إياه لتحتفظ به، فأفضل شيء تفعله هو أن تعطيني منه عندما يشقونني نصفين في إحدى المعارك فتجمّع النّصفين وتضع من هذا البلسم عليهما وهكذا تراني أصحّ وأنضج من تفاحة.
- إذا كان الأمر كذلك – قال سانشو– فإنّي متنازل منذ الآن عن حكم الجزيرة مقابل معرفة طريقة تحضير هذا البلسم وهكذا أستطيع أن أبيعه وأعيش بقية حياتي براحة ورفاهية. ولكن هل تكلف طريقة تحضيره كثيراً من المال؟
- بنقود قليلة يمكنك تحضير كميات كبيرة من هذا البلسم– أجابه دون كيخوته– ولكنني أفضّل أن أعلمك أسراراً أكبر من ذلك. ولكن الآن لنأكل شيئاً حتى نستطيع متابعة السير، فلعلنا نجد قلعة ننام فيها هذه الليلة، ثم إني أريد أن أحضر هذا البلسم الذي حدثتك عنه.
- عندي هنا بصلة وقليل من الجبن إضافة إلى كسرات من الخبز، وهذا ليس طعاماً يليق بفارس شجاع مثلك يا مولاي.

- كم تسـيء فهـم الأمور!– أجابـه دون كيخوتـه– إنه لفخر للفرسـان الجوالين أنهم لا يأكلون طوال شهر كامل، وإذا أكلوا رضوا بأي شيء في متناول اليد.

راح الاثنـان يـأكلان معاً بهدوء، وسـرعان ما أتمّـا أكلَهما، وركبـا دابتهما وأسـرعا في الوصول إلى مـكانٍ مأهول قبل أن يخيِّـم الليل عليهما، فتوقفا قريباً من كوخٍ لرعاة الأغنام، وقررا قضاء الليل هناك.

الفصل العاشر

دون كيخوته واليَنجواسيون[1] الأشرار

نام دون كيخوته وسانشو تلك الليلة في كوخٍ لرعاة الماعز، وغادرا في الصباح، وإذ بهما يدخلان في غابة. فترجّلا وتركا روثينانته والحمار يرعيان على هواهما العشب الغزير الموجود في الغابة، أما هما فقد أخرجا الطعام وراحا يأكلان ما وجداه. وشاءت الصدف أنه كان يرعى في الغابة أيضاً عدد من الأفراس الإناث يرعاها بغالون ينجواسيون. فلم يكد روثينانته يرى ذلك حتّى اقترب من الأفراس الإناث وراح يغازلهن، ولكن الأفراس الإناث كنَّ بحاجة إلى الرعي أكثر من أي شيء آخر، فاستقبلن روثينانته بالرفس والعض حتى وقع أرضاً. في تلك الأثناء شاهد دون كيخوته روثينانته فقال لسانشو:

(١) الينجواسيون: شخص ينتمي إلى قرية يانجواس في سيغوبيا.

- يُخيّـل لـي يا صديقي سانشـو أنَّ هؤلاء ليسـوا فرسـاناً بل أناس سـفلة! أقـول لك هذا لتسـاعدني علـى الانتقام من الإهانة التي أوقعوها بروثينانته أمام أعيننا.
- فأجابـه سانشـو: أيُّ انتقـامٍ هـذا، وهـم أكثـر من عشـرين شخصاً ونحن اثنان فقط؟
- أنا بمائة. ردَّ عليه دون كيخوته.

ودون أن يقـول شـيئاً إضافيـاً، اسـتلَّ دون كيخوتـه سـيفه وهاجم الينجواسـيين، وفعل سانشـو مثلما فعل سـيده مقتدياً به. ضـرب دون كيخوته أحد البغالين فشـق صدريته الجلدية، ولمـا رأى الينجواسـيون ذلـك، وكان عددهم كثيـراً، هجموا علـى دون كيخوتـه وسانشـو بالعصي وألقـوا بهمـا أرضاً من كثرة الضرب، فلما انتهوا مـن فعلتهم جمعوا الأفراس الإناث وغادروا المكان.

وكان أول من استيقظ بعد الضرب سانشو فقال لسيده دون كيخوته:

- أتوسّل إليك يا سيدي أن تعطيني جرعة من بلسم فيرابرس، إن كان معك منه.

- آه لـو كان معـي- أجاب دون كيخوتـه- ولكنني أعدك أنه لن يمضي يومان حتى أعطيك من هذا البلسم. وإنني أعلم أن الذنب ذنبي في هذا، فلقد هاجمت أناساً ليسوا بفرسان جوالين مثلي، ولقد خالفت بهذا قوانين الفروسية.
- مـولاي! أنـا رجـل مسـالم - أجابـه سانشـو- وأسـتطيع احتمـال جميع الإهانات التي أتعرض لهـا لأن لديّ امرأة وأولاد علـيَّ تربيتهم ورعايتهم. ولذلك فإنني لن أمسـك السـيف بعد اليوم لأقاتل فيه أحداً مهما كان غنياً أو فقيراً، فلاحاً أو نبيلاً.
- عليـك أن تعلم يا صديقي سانشـو- أجابـه دون كيخوته- أنَّ حيـاة الفرسـان الجواليـن معرضـة دائمـاً للأخطـار والمصائب، هيا لننهـض ولننظر كيف حال روثينانته فلقد عانى معنا من هذه المحنة.
- الغريب في الأمر يا سيدي أنَّ حماري خرج سليماً من هذه المحنة أما نحن فقد خرجنا مكسوري الأضلع.
- دائمـاً مـا يُترك في الشـدائد بـابٌ نخرج منـه- أجابه دون كيخوته- أقول لك هذا لأن هذا الحمار يمكنه أن يحملني

الآن إلـى قلعة حيث تضمـد جروحي، كما أني لا أرى في الركـوب عليه ما يشـين، فالجروح التي يتلقّاهـا المرء في المعارك تزيده شـرفاً ولا تسـلبه شـرفه؛ لذلك يـا عزيزي سانشـو انهض بأقوى ما اسـتطعت وساعدني في الركوب علـى حمارك، ولنذهب مـن هنا قبل أن يفاجئنـا الليل في هذه الصحراء الموحشة.

- ولكنني سـمعت حضرتـك تقـول- ردَّ عليه سانشـو- أنَّ كثيراً ما ينام الفرسـان الجوالون في الصحارى الموحشـة ويُسعدون بذلك كثيراً.

- إن هـذا يحـدث عندمـا لا يسـتطيعون فعـل شـي، أو إذا كانوا عشـاقاً – أجـاب دون كيخوتـه-. والحقيقة أنَّ كثيراً من الفرسـان ممن اكتفى بصخرة مُعرّضاً للشـمس والظل ولتقلّبـات الطقس خـلال عامين، دون أن تعرف عشـيقته بذلـك. ولكن لندع هـذا الآن يا سانشـو ولنذهب للحمار قبل أن تقع به مصيبة كما حدث لروثينانته.

وأخيـراً وضـع سانشـو دون كيخوتـه علـى الحمـار وتابعا طريقهما وإذ بهما يصادفان فندقاً، فقال دون كيخوته إنه قصرٌ، أما سانشو فأصرّ على أنه فندق.

الفصل الحادي عشر

ما حدث لدون كيخوته في الفندق الذي حسبه قلعةً

رأى صاحب الفندق دون كيخوته مطروحاً على الحمار فسأل سانشو ماذا حدث لهذا الرجل، وأجابه سانشو أن سيده سقط من أعلى صخرة إلى الأسفل وتكسرت أضلاعه. وكان لصاحب الفندق زوجة وابنة ذات مظهر جميل.

وكانت تخدم في الفندق خادمة من أشتورية، عريضة الوجه، مسطّحة الأنف، عوراء في عين، ولا ترى جيداً في العين الأخرى. ولكنها كانت جميلة القوام. وكان سرير صاحبنا دون كيخوته بين سرير ابنة صاحب الفندق وبين سرير الخادمة ماريتورنيس. وكان في الغرفة نفسها سرير بغالٍ كان قد وصل لقضاء المساء في الفندق.

رقـد دون كيخوتـه فـي سـريره وسـرعان مـا جاءتـه الابنة والخادمـة لمداواته. وعندما شـاهدت الخادمـة بقعاً زرقاء في جسم دون كيخوته قالت إنَّ هذه ليست وقعة بل آثار ضرباتٍ.

- إنها ليسـت ضربات- أجاب سانشو- ولكن الصخرة التي سقط عنها فيها نتوءات تركت فيه هذه الآثار.
- ما اسم هذا الفارس؟ سألت الخادمة ماريتورنيس
- اسـمه دون كيخوتـه دي لا منشـا- أجابهـا سانشـو- وهو فارس جوّال من أشجع وأشهر الفرسان على وجه الأرض.
- فسألته الخادمة: وما هو الفارس الجوال؟
- هـل أنـت جديدة علـى هـذه الدنيا لكـي لا تعرفـي ما هو الفـارس الجـوال؟ أجابها سانشـو- إذن فلتعلمي يا أختي أن الفارس الجـوال يمكنه أن يصبح في لحظة إمبراطوراً، فاليـوم يكـون أتعس النـاس، وغـداً يملك ثلاثـة أو أربعة تيجان يعطيها لحامل سلاحه.

وكان دون كيخوتـه يسـمع الحديـث فقـال لزوجة صاحب الفندق:

- صدّقيني يا سيدتي، تستطيعين أن تعتبري نفسك أسعد الناس، لأنك استقبلتني في قلعتك. سيعرفك خادمي بشخصي، ولكنني أودُّ أن أقول لك: إنني سأعترف لك بجميلك مدى الحياة.

لم تفهم أيٌّ من النساء الثلاث كلمة واحدة مما قاله الفارس الجوال دون كيخوته، إلا أنهن شكرنه على كلماته الطيبة وغادرن. وراحت الخادمة ماريتورنيس لتضمّد جراح سانشو فكان بحاجة إلى ذلك مثل سيده.

وكان البغال قد اتفق مع ماريتورنيس على قضاء ليلة مرحة. إذ وعدته أن تأتي إليه بعد نوم النُّزلاء. وكان سرير دون كيخوته في منتصف الغرفة وبالقرب منه هيأ سانشو منامته. وتلا هذين السريرين سرير البغال، وكان أفضل من سرير دون كيخوته، ولم يستطع دون كيخوته ولا سانشو النوم في تلك الليلة، وكذلك لم ينم البغال لأنه كان ينتظر الخادمة.

راح دون كيخوته يتذكّر كل ما قرأه في كتب الفروسية. وتخيّل أنه في قلعة كبيرة وشهيرة، وأن ابنة صاحب القلعة

أغرمـت به إلـى حد الجنون بحيث إنها سـتأتي لتنـام معه هذه الليلة دون علم أهلها. وجاءت السـاعة التي تواعد فيها البغال مـع الخادمة، ودخلـت الخادمة إلى الغرفة حيـث ينام الثلاثة. شـعر دون كيخوته بأحـد يدخل الغرفة، ذلـك أن الغرفة كانت مظلمـة ولكنـه لـم يسـتطع أن يميز من كانـت فاعتقـد أنها ابنة صاحب القلعة، فمدَّ يديه لاستقبالها. مسكها من يدها وجذبها إلـى سـريره وراح يمسـد شـعرها وبينمـا كان يفعل هـذا ظنّها أجمل امرأة في العالم وقال لها:

- كان بودي لو استعطت يا سيدتي الجميلة الفاتنة أن أجازي هـذه النعمة التي أنعمت بها عليّ بأن أرى جمالك الفاتن، ولكن آلامي تمنعني مـن ذلك، إضافة إلى أنني قد قطعت عهداً على سـيّدة أفكاري دولثينيا ديل توبوسو أن لا أحب غيرها.

سـمع البغـال الـذي كان بالقرب مـن دون كيخوتـه ما كان يقولـه، فشـعر بالغيـرة واقترب خلسـة من سـرير دون كيخوته ورأى أن الفتاة كانت تحاول الإفلات من دون كيخوته في حين كان هـو يمنعها. فاشـتدّ غضـب البغّال ورفع يـده عالياً وهوى

يضرب رأس الفارس العاشــق حتى امتلأ فمه دماً، وركب بعد ذلك فوقه وراح يركله.

انكســر السرير وســقط أرضاً واســتيقظ صاحب الفندق من قــوة الصــوت، وذهب ليرى مــا يحدث فــي الفندق. أحسّــت الخادمة بسيّدها، وكانت تعرف شراسة خلقه الصعب، فتخبّأت في ســرير سانشــو. استيقظ سانشــو وراح يضرب الخادمة، أما صاحــب الفنــدق، فقــد عــرف أن الخادمــة هي السبب، فراح يضربهــا بقــوة وهكــذا حدثــت أغــرب وأطــرف مشــاجرة في التاريخ. راح البغال يضرب سانشــو، وسانشو يضرب الخادمة وصاحب الفندق كان يضرب هو كذلك الخادمة.

وتصادف أن كان في الفندق في تلك الليلة حاكم عدل، فلم يكد يسمع الضجة حتّى دخل الغرفة وصاح عالياً:

- توقّفوا باسم العدالة!.

وكان أوّل من لقاه دون كيخوته المســكين الذي كان ممدداً من دون حراك فأمسك حاكم العدِل بلحيته ولكن دون كيخوته لم يحرك ســاكناً فظن أنه قد قتل وأن الآخرين هم القتلة فصاح عالياً:

- أغلقوا باب الفندق، لا أريد لأحدٍ أن يهرب.

هـرب الجميع من المـكان بفعـل الصرخـة، ولـم يبق في الغرفـة إلا دون كيخوتـه وسانشـو اللّذين لم يسـتطيعا الحراك بفعل المشاجرة.

الفصل الثاني عشر

في تلاوة الأخبار التي وقعت في الفندق

وما إن استيقظ دون كيخوته من إغمائه، حتّى أخذ يصيح لحامل سلاحه قائلاً:

- صديقي سانشو، هل أنت نائم؟ هل أنت نائم يا صديقي سانشو؟
- أي نوم تريد لي أن أنام – أجابه سانشو– إذا كانت شياطين الأرض كلها فوقي هذه الليلة؟
- تستطيع أن تصدقني أو لا تصدقني – أجابه دون كيخوته– ولكنني أعتقد أن هذه القلعة مسحورة. كما أنني أود أن أقول لك سراً أتمنى أن تحتفظ به مدى الحياة.
- أقسم لك يا سيدي بذلك– أجابه سانشو.

- فقال له دون كيخوته لقد جاءت في هذه الليلة ابنة صاحب القلعة، وهي أجمل فتاة توجد على قسم من الأرض وقد تبادلت معها أجمل وأحرّ حديث وفجأة انقضّت عليّ كفّ ماردٍ فضربني بقبضته على فكي ولايزال ينزف الدم بسببها.
- لقد حدث الأمر نفسه معي- أجابه سانشو- فقد ضرني أكثر من أربعمائة مارد.
- لا بأس عليك يا سانشو- أجابه دون كيخوته- فسأحضر الآن البلسم الذي سيشفينا. انهض يا سانشو، إذا استطعت، واطلب من قائد القلعة أن يحضر لك الزيت، والخمر، والملح وإكليل الجبل لكي أحضّر لك البلسم الشافي.

نهض سانشو وذهب إلى صاحب الفندق وطلب منه فزوده بكل ما طلبه. جمع دون كيخوته المواد وخلطها مع بعضها وأنضجها على النار. ثم قام بتلاوة أكثر من ثمانين آية وكان يتلو كل كلمة برسم علامة الصليب.

وأراد دون كيخوته أن يجرّب البلسم الذي حضره، فشرب

ليتـراً تقريباً وما إن انتهى من شـربه حتـى تقيأ كل ما في معدته. وصحب هذا القيء عرقٌ شديدٌ فخلد بعد ذلك إلى نومٍ عميق. ولما استيقظ كان في صحة جيدة فظنّ أنّه عرف طريقة تحضير بلسم فيرابرس.

عندما رأى سانشو أنّ سيده قد تعافى أراد أن يجرّب البلسم، فشـرب منه جرعة ليسـت قليلة، ولكن معدته لـم تكن كمعدة سيده، فكاد يموت لِكثرة ما تقيأ!.

وبعـد أن تعافـى دون كيخوتـه، أراد أن ينهـض بحثـاً عـن المغامـرات، فجهز روثينانته وأعان سانشـو فـي الركوب على حماره، ونادى صاحب الفندق قائلاً له:

- سـيدي العزيز شـكراً لك على اسـتضافتك لـي، وإذا كان هنـاك مـن أهانك أتمنـى أن تقول لي هذا، ولسـوف أنتقم لك من أية إهانة تعرضت لها.
- سيدي الفارس! لست في حاجة لأن تنتقم لي من أية إهانة، لأننـي أعرف كيف أنتقم لنفسـي جيداً. وجُـلُّ ما أريده هو

أن تدفـع لـي أجر نفقاتك فـي الليلة الماضية فـي الفندق، وكذلك ثمن الشعير والتبن، وثمن السريرين والعشاء.

- فصاح دون كيخوته: إذاً هذا فندق؟
- نعم فندق طيب السمعة- أجابه صاحب الفندق.
- إذاً لقـد كنـت على ضلال- قـال دون كيخوته- لقد خلت أننـي في قلعـة، وبمـا أنَّ الأمر كذلـك فاعذرنـي عن دفع الأجرة، ذلك أنني لا أسـتطيع أن أخالف قوانين الفروسية التي تقول إنَّ الفرسـان الجواليـن لا يدفعون ثمن طعامهم ولا إقامتهم.
- فأجـاب صاحـب الفنـدق: وما شـأني بهذا كلـه؟ ادفع ما عليك ودع قصص الفروسية جانباً.
- أنت فندقيٌّ غبي- أجابه دون كيخوته.

قـال دون كيخوته هذا وخرج علـى صهوة روثينانته دون أن يوقفه أحد ودون أن ينظر إنْ كان سانشو يتبعه.

أراد صاحـب الفنـدق أن يثأر من سانشـو، وصادف أن كان في الفنـدق أناس من أهـل المرح والفرح والمجـون، فمضوا

إلـى سانشـو وأنزلوه عن حمـاره، وأحضر أحـد الرجال غطاءً ووضع سانشو فيه وقاموا بتطييره في الهواء والضحك عليه!.

وصلت صرخات سانشـو إلى مسـامع سـيده دون كيخوته فعاد إلى الفندق ليرى ما الأمر، فلما رأى ذلك بدأ يصرخ عالياً ويشتم أولئك الذين يعبثون بسانشو. ولكن الرجال لم يتوقفوا واسـتمروا بذلـك إلـى أن تعبوا فتركـوه. وأحضـروا له حماره ووضعوه عليه وأرسلوه إلى سيده.

الفصل الثالث عشر

دون كيخوته والخرفان

لحق سانشـو بسيده دون كيخوته محطماً منهك القوى فلما شاهده دون كيخوته على هذه الحال قال له:

- الآن أعتقـد يـا سانشـو الطيـب أن هـذا القصـر أو الفندق مسحور من دون شك، فماذا يمكن أن يكون أولئك الذين عبثـوا معـك إلا أشـباحاً وجنّاً مـن العالم الآخـر؟ والذي يؤكـد هذا هو أنني بينما كنت أحـاول النزول عن حصاني لأسـاعدك فـي الانتقـام منهم اسـتحال عليّ ذلك بسـبب السحر.
- فأجـاب سانشـو: أنا كذلك كنت أود الانتقـام منهم لكنني لم أسـتطع. ولكنني على الرغم من هذا فإنني واثق من أن أولئـك الذين عبثوا بي ليسـوا أشـباحاً بل رجـالاً من لحم وعظـم ولكل منهم اسـم تمامـاً مثلنا. والآن خيـرٌ من هذا

كلـه هـو أن نعود إلى منزلنـا، والوقـت الآن وقت حصاد، وبذلك ندبر أمورنا بدلاً من أن نتسـكع من سـكّة إلى مكّة كما يقولون.

- مـا أجهلـك بشـؤون الفروسـية يـا سانشـو- أجابـه دون كيخوته- اصبر وسـترى ما تحمله مهنة الفروسـية من نبل وعظمـة. فهـل هناك في الكـون أعظم من نشـوة الانتصار على العدو في المعركة؟ لا يوجد أعظم من ذلك.
- ربمـا كان ذلـك ولكنني لا أعرف شـيئاً عن هـذا – أجاب سانشو- ولكننا منذ أن أصبحنا فارسين جوالين، ونحن لم ننتصـر حتى الآن اللهم إلا فـي معركة واحدة، وحتى تلك المعركة فقد خرجتَ منها بنصف أذن.
- إن هـذا يؤلمني- قال دون كيخوته- ولكنني سـأحاول أن أحمل سـيفاً يكون في مأمن من كل أنواع السـحر، ولَعَلّي سـأحصل علـى سـيف آماديـس، الـذي كان يطلـق عليـه "السـيف المتقد"، كان يقطع كالموس ولا تقاومه أية درع أو سلاح.
- أعتقد أن هذا السـيف –قال سانشـو- لا يفيد إلا الفرسان

تماماً مثل البلسم، أما حملة السلاح فلتحلّ عليهم اللّعنة.

وبينما كانا يتحدثّان أبصر دون كيخوته على الطريق سحابة تراب كثيفة فاتّجه صوب سانشو وقال له:

- هـذا هو اليـوم الذي تركه الحـظ لي لكي يـرى العالم كله شـجاعتي وقوة ذراعي، فهل ترى تلك السـحابة الكثيفة يا سانشـو؟ اعلم إذاً أنَّ من سبّبها إنّما هو جيشٌ كبيرٌ يمرُّ من هنا.

- علـى هـذا الحسـاب هما جيشـان – قـال سانشـو– إذ في الناحية الأخرى ترتفع زوبعة أخرى.

والتفت دون كيخوته ولما شـاهد ذلك صدق سانشو وشعر بسعادة بالغة إذ إنه اعتقد أنهما جيشان سيتعاركان مع بعضهما فـي السـهل. ولكنَّ الحقيقـة أن سـبب هاتين السـحابتين كان قطيعان هائلان من الغنم يسيران على الدرب نفسه من مكانين مختلفين.

راح دون كيخوته يُلحُّ ويؤكِّد أنّهما جيشـان الأمر الذي دفع سانشو إلى التصديق فقال:

- وماذا نحن فاعلان إذاً يا سيدي؟
- ماذا؟ أجاب دون كيخوته- سنعين المحتاجين ونساعد الضعفاء، ولا بدَّ لك أن تعرف أنَّ الجيش المواجه لنا هو بقيادة علي فانفرون، والجيش الآخر يقوده عدوه اللدود بينثابولين المشّمر الذراع، ويطلق عليه هذا الاسم لأنّه يدخل المعارك مشمر اليدين.
- ولماذا يتعارك هذان السيّدان؟ سأله سانشو
- هما يتعاركان لأنّ علي فانفرون رجل قاس، وقد وقع في غرام ابنة بينثابولين، وهي فتاة نصرانية، وأبوها لا يريد أن يزِّوجها لرجل كافر.

وراح دون كيخوته يقول أسماء فرسان وأماكن بصوت عال وبحماسٍ شديد، وعندما انتهى قال له سانشو:

- مولاي ليس هناك فرسان ولا مردة عملاقة، لعل هذا كله سحرٌ ملعون.
- فأجابه دون كيخوته: كيف تقول هذا يا سانشو؟ ألا تسمع صهيل الخيول وقرع الطبول؟
- لا أسمع إلا ثغاء الغنم والنعاج المتواصل- أجابه سانشو.

لـم يسـتطع دون كيخوتـه كبح نفسـه مـن الحماسـة فهجم كالصّاعقـة علـى قطيع الغنم وراح يهاجمهـا برمحه وقتل أكثر من ثمانية.

راح رعـاة القطيـع يصرخـون بـدون كيخوتـه كـي يتوقّـف ولكنّـه لـم يُصغِ لهـم، فبـدؤوا يقذفونه بالحجـارة، وإذ بحجر يصيبـه فيكسـر لـه ضلعين. فـي أثناء هـذا تذكـر دون كيخوته البلسـم فأخرج علبة البلسم لكي يشرب منه وإذ بحجر يصيب القنّينة التي بها البلسـم فيكسـرها ويسـقط دون كيخوته أرضاً. اعتقـد الرعاة أنهّم قتلوا دون كيخوته فجمعوا القطعان وهربوا مسـرعين. ولـم يكد سانشـو يرى الرعـاة وهم يغـادرون حتى اقترب من سيّده وقال له:

- ألم أقل لك يا سيدي أنّك تهاجم قطعاناً وليس جيوشاً؟
- مـن المؤكد أنَّ هذا سـحرٌ يـا عزيزي سانشـو- أجابه دون كيخوته.

أسرع سانشو إلى الخرج ليخرج ما به ويضمّد جراح سيده، لكنه لم يجد الخرج، فكاد يفقد صوابه وفكّر أن يعود إلى منزله

لـو كلّفه ذلك فقدان الجزيرة التي سـيصبح حاكماً عليها. ولما شاهد دون كيخوته سانشو بهذه الحالة قال له:

- اعلم يا سانشو أنّ هذه المصائب التي تحلّ بنا هي علامات أنَّ الزَّمان سـيتغيَّر وستتحسَّـنُ أمورنا، فمن المستحيل أن يدوم الخير أو الشر دائماً.
- نعم يا سـيدي ولكنني فقدت خرجي وكل الأغراض التي بداخله. قال سانشو.
- فقال دون كيخوته: إذاً ليس لدينا ما نأكله اليوم؟
- سـيكون الأمـر كذلـك إذا لم نجد فـي هذه المـروج التي تزعم حضرتك أنك تعرفها جيداً ما نأكله- أجابه سانشو.
- مـع هذا كله – قـال دون كيخوته- كنت أفضّـل أن أتناول بعـض الخبـز والسّـمك علـى كل الحشـائش الموجودة. ولكن على الرغم من هذا كله اركب على حمارك واتبعني، فالله، الذي أنعم بكل شيء، لن ينسانا.
- فقـال له سانشـو: إن شـئت الحق يا سـيدي فأنـت أصلح لإسـداء الحكـم والمواعظ منـه لأن تكون فارسـاً جوالاً. ولكـن هيا بنـا من هنا ولنبحـث عن مأوى لنا هـذه الليلة، لايكون فيه أشباح تطير في الليل.

- اطلب هذا من الله يا ولدي، واقتدنا أينما شئت، وسأتبعك أنـا هذه المرة. ولكـن قبل هذا تعال وانظـر كم فقدت من ضرس بعد ضربة الحجر تلك؟

فوضع سانشو يده في فم سيده وقال:

- مـن هـذه الناحيـة في الفك الأسـفل لـم يبق إلا ضرسـين ونصف، وفي الفك الأعلى لم يبق لا نصف ولا شيء.
- واحسـرتاه - راح دون كيخوتـه يصـرخ- ليتهـم اقتلعـوا ذراعي بدلاً من أسناني. ولتعلم يا صديقي سانشو أنَّ الفم بـدون أسـنان كالطاحون بـدون حجر، وعلى الإنسـان أن يقدر السن أكثر من الماسة. اركب على حمارك وسأتبعك أينما ذهبت.

راح الاثنان يسـيران الواحد تلو الآخر، خطوة بخطوة، لأن الألم لم يجعل دون كيخوته يمشـي بسـرعة، أما سانشـو فراح يروي له ما سنورده في الفصل التالي.

الفصل الرابع عشر

الأحاديث التي جرت بين دون كيخوته وسانشو

راح دون كيخوته وسانشو يتسامران بهدوءٍ، فنظر سانشو إلى دون كيخوته وقال له:

- إذا سألني أحدٌ ما عن اسمك، فسأقول له إن اسمك الشهير دون كيخوته دي لا منشا، المعروف أيضاً باسم فارس الوجه الحزين.

ولما سأل دون كيخوته سانشو عن سبب هذا الاسم أجابه سانشو:

- لقد كنت أمعن النظر فيك يا سيدي خلال فترة طويلة، وتبيّن لي أنّك أقبح صورة رأيتها منذ سنوات ولعل هذا يعود إلى التعب من كثرة المعارك أو إلى فقدان أسنانك.

- لا، ليـس الأمـر كذلـك يا سانشـو- أجابـه دون كيخوته- ولكـنَّ الحكيم الـذي يكتب قصتنـا أراد أن يعطيني لقباً ذا دلالـة خاصة، كما هو حال سـائر الفرسـان فـي الماضي: فمنهـم مـن كان لقبه فـارس الموت، ومنهم مـن كان لقبه فارس النّور، وهكذا أظنّ أنَّ الحكيم الذي ذكرته قد وضع فـي فكرك ولسـانك لقـب «فـارس الوجه الحزيـن» وهو الاسـم الذي سأسـمي نفسـي به منذ الآن، وسأرسم على ترسي- متى سنحت الفرصة- صورة وجه حزين كئيب.

وهكذا بعد وقت ليس بالطويل، وصلا وادٍ فسـيحاً أخضر، فحطا الركاب وكان أسـوأ ما في الأمر أن ليس لديهم نبيذاً ولا ماءً للشُّرب.

الفصل الخامس عشر

في المغامرة
التي قام بها دون كيخوته

وما إن رأى سانشو نضرة هذا العشب حتى قال لسيده:

- من المستحيل أن لا يوجد في هذه النضرة نبع ماء أو نهر، من الأفضل أن نتقدّم قليلاً، فلعلنا نجد ما يروي عطشنا.

اقتنع دون كيخوته في نصيحة خادمه، وسارا معاً صعوداً هبوطاً دون أن يعرفا أين هما، ذلك أنَّ المساء كان قد حال دون رؤية الأشياء. وبعد أن سارا طويلا سمعا خرير ماءٍ إضافة إلى ضجيج سلاسل وقيود حديدية فخافا جداً من هذا الصوت.

أراد دون كيخوته أن يذهب ليرى مصدر الصوت، ولكن سانشو الذي كان ميتاً من الخوف ربط أقدام الفرس روثينانته ليمنع دون كيخوته من الرحيل، أما دون كيخوته فقد خُيِّل له

أن فرسه مسحور، وهكذا قرّر الانتظار حتّى حلول الصّباح.

وشعر سانشو بحاجة إلى إنزال ثقل في بطنه، وفعل هذا في المكان نفسه الذي كان فيه ولما كان دون كيخوته يملك حاسة شم قوية، شم رائحة ما فعله سانشو فقال له:

- يبدو أنك خائف جداً يا سانشو.
- نعم يا سيدي، ولكن كيف عرفت أني خائف؟ سأله سانشو
- لأن رائحة خوفك تنبعث منك، وهذه ليست رائحة عنبر!. قال دون كيخوته.
- هـذا ممكن- أجاب سانشـو- ولكنَّ الذنـب في هذا ليس ذنبـي يـا سـيدي، فأنـت الـذي قدتني إلـى هـذه الأماكن المظلمة والمهجورة.
- ابتعد بضع خطوات يا عزيزي سانشو- قال دون كيخوته- ومنذ الآن فصاعداً راعِ شخصي وما ينبغي عليك نحوي.

بهـذه الأحاديث وغيرهـا قضى الخادم وسـيده اللّيلة. ومع الصباح سـارع سانشـو إلى فك أقدام الفـرس روثينانته، وتابع

الاثنان سـيرهما، وإذ بهما في غابة من الكسـتناء الباسـقة وفي نهاية الغابة كان هناك شـلال ماء يسـقط بغـزارة على الصخور وكانت فيه قطع حديدية تتسـاقط، فـكان ذلك مصدر الصوت الذي خافا منه.

عندمـا رأى دون كيخوتـه سـبب الصـوت الـذي أخافه هو وسانشـو وقف صامتاً، أما سانشو فلم يستطع تمالك نفسه من الضّحك!

فلما رأى دون كيخوته سانشو يضحك كثيراً، غضب وهوى على سانشـو بضربتين قاسـيتين ظناً منه أنَّ سانشـو يسخر منه. فقال له سانشو:

- هدِّئ من روعك يا سيدي، أقسم إنني لا أسخر منك.
- تعـال إلى هنا يا عزيزي سانشـو- قـال دون كيخوته- هل تظـن أنني كفارس ملزم أن أعرف هذا الصوت؟ ألا يمكن أنني لـم أر مثل هذا الشـيء بحياتي كلها؟ ثم إنني لسـت فلاحاً مثلك حتى أعرف هذا الصوت.

- لا بأس يا سيدي - أجابه سانشو - وأنا أعترف أني ضحكت أكثر من اللّازم، ولكن الحق أن الأمر كان مضحكاً.
- لست أنكر أن في الأمر ما يدعو إلى الضحك - أجابه دون كيخوتـه- ولكـن لا تخبر أحـداً فليس كل النـاس قادرين على تحليل الأمور بشكل عقلاني.

الفصل السادس عشر

خوذة ممبرينو

في تلك الأثناء بدأ المطر في السقوط، وتابع الاثنان سيرهما وأخـذا طريقـاً مشـابهاً لطريـق الأمس. وبعد أن مشـيا مسـافة ليسـت بالقصيـرة، أبصر دون كيخوته رجـلاً راكباً على فرس، يضع على رأسـه شـيئاً يلمع كأنه من ذهب، فالتفت بسرعة إلى سانشو وقال له:

- بالفعـل يا سانشـو مـا إن يُغلق باب حتى يفتـح آخر، أقول لـك هذا لأنه – لو صدق ظني– فإني أرى قادماً إلينا رجلاً يلبس في رأسه خوذة ممبرينو.
- بحَـقِّ الله يا مولاي أن تأخذ حـذرك مما تقول وما تفعل– أجابه سانشو.
- كيـف أخطـئ فيما أقـول يـا عزيزي سانشـو!– قـال دون كيخوتـه– ألا ترى معي ذلك الفـارس القادم نحونا يركب

حصاناً أسود، ويضع على رأسه خوذة ممبرينو؟

- إن جُلَّ ما أراه يا سيدي ليس إلا رجلاً يركب حماراً ويضع على رأسه شيئاً يلمع– أجابه سانشو.
- إنه خوذة ممبرينو – قال له دون كيخوته– والآن تَنَحَّ جانباً ودعني وحدي وسترى كيف سأستولي على هذه الخوذة التي لطالما رغبتها.

وكان في الحقيقة هذا الرجل حلّاقاً، يركب حماراً ويضع على رأسه صحن حلاقة نحاسي ليحمي نفسه من المطر، ولكن دون كيخوته كان يراه فارساً يركب حصاناً ويضع خوذة ممبرينو الذهبية.

وما كان من دون كيخوته إلا أن انقضَّ على ذلك الرجل حاملاً رمحه مهاجماً إياه وهو يصيح:

- دافع عن نفسك أيها المخلوق الحقير– أو سلّمني الخوذة التي تخصّني.

وما إن رأى الحلاق ذلك المنظر حتّى نزل عن حصانه وبدأ يركض هارباً من دون كيخوته تاركاً الخوذة على الأرض،

ففرح دون كيخوته كثيراً ونادى سانشو لالتقاطها فقال سانشو:

- حقاً إنّه صحن ثمين!

أعطى سانشو سيّده الصحن وحاول دون كيخوته أن يلبسه لكنه لم يستطع فقال دون كيخوته:

- لا بدَّ أن اللعين الذي صنع هذه الخوذة له رأسٌ كبيرٌ جداً.

فلما سمع سانشو أنّ سيده يسمّي صحن الحِلاقة خوذة لم يتمالك نفسه من الضّحك ولكنه هذه المرة أخفاها خوفاً من أن يضربه سيده.

- مِمّ تضحك يا سانشو؟- سأله دون كيخوته-.
- أضحك من كبر رأس صاحب الخوذة التي تشبه صحن الحلاقة. أجابه سانشو.
- هل تعرف ما أعتقده يا عزيزي سانشو؟ أظن أن هذه الخوذة المسحورة قد وقعت في يد من لا يعرف قيمتها ولما رآها من ذهب أراد بيع نصفها للاستفادة من ثمنه أما النصف الآخر فهو الذي بين أيدينا. ولكنني بالرغم من هذا سأضعها وسأحمي نفسي من الحجارة.

- فقال سانشـو: بشـرط ألّا تكـون كالحجارة التـي قذفنا بها أثناء معركة الجيشـين عندما انكسرت أسنانك يا سيدي!. والآن ماذا سنفعل بهذا الحصان الذي يبدو حماراً؟

- فأجابـه دون كيخوتـه: ليس من عادتي كفارس أن أسـلب مـن أهزم لذلـك فلنترك هذا الحصان لأن صاحبه سـيعود بعد أن نغادر المكان.

- حقـاً إن قوانيـن الفروسـية صعبـة التّطبيق يا سـيدي- قال سانشـو- ولكـن علـى الأقـل ألا أسـتطيع أن أسـتبدله بحماري؟

- لست واثقاً من هذا يا سانشو- أجاب دون كيخوته- ولكن أعتقد أن لا بأس من تبديله.

الفصل السابع عشر

مغامرة الجبل

وبينمـا كان الاثنـان يتحدثان وهما فـي طريقهما وصلا إلى قاعدة جبل يبدو كصخرة باسـقة، وعلى سـفحه يجري جدول ماء عذب وحوله أشـجار خضراء. واختار صديقنا العزيز دون كيخوته الملقب بفارس الوجه الحزين هذا المكان ليعتزل فيه، ولم يكد يرى المكان حتى صاح كالمجنون:

- وحقِّ هذه السماوات، هذا هو المكان الذي اخترته لأنوح فيـه مصيـري وآلامي التـي يعانيها قلبـي! آه أيتها الآلهات اللواتـي تسـكنين هذا المكان، اسـتمعن إلى شـكوى هذا العاشـق المسـكين!، أوه يـا دولثينيـا ديل توبوسـو يا نهار ليلـي، ومجـد آلامـي، ونجمة أسـفاري، ألا ليت السـماء تسـتجيب لكل دعواتك لـو تفضّلتِ ورأيتِ مـا أعانيه في غيابك عنّي!.

ومـا إن قال فارس الوجه الحزين هـذا حتى نزل عن صهوة فرسـه روثينانته وفك لجامها وأعطاها حريتها، فلما رآه سانشو قال له:

- سـيدي فارس الوجه الحزين، أجدى وأفضل من أن تترك روثينانتـه يذهب هو أن تعطيني إيـاه ليوفر عليَّ الوقت في العودة.
- معك حق يا سانشـو – قال دون كيخوتـه– فبعد ثلاثة أيام سـترحل ولكن الآن سـترى ما أنا فاعل مـن أجل عزيزتي وسيّدة أحلامي دولثينيا.
- فقال سانشو: ولكن ما عساي أن أرى أكثر مما رأيته؟
- الآن سـأمزق ثيابي، وأرمي سـلاحي وأتقلّـب وأقفز على هذه الصخور– قال دون كيخوته.
- إنْ كان لابـدَّ من تقلباتك، فالأفضل أن تفعلها في الماء أو على شيء ناعم مثل القطن لكي لا تكسر أضلاعك.
- أريدك أن تعرف يا عزيزي سانشو– أجابه دون كيخوته– أنَّ هذا مخالف لقوانين الفروسية التي تتطلب منا ألا نكذب. والآن سأكتب لك رسالة إلى سيدتي دولثينيا.

- نعم يا سيدي وأنا سأنقل إلى السيدة دولثينيا كل حماقاتك وجنونك، والآن اكتب حضرتك رسالتك لكي أنقلها إلى سيدتك، فكم أودُّ أن أخلصك من العذاب الذي أنت فيه.
- أقسم لك يا سانشو إن حبي لها أفلاطونيٌّ- ولم أرها طوال حياتي كلها سوى أربع مرات! - قال دون كيخوته- وفي هذه المرات الأربع لم تكن تعلم أني أنظر إليها، فلقد ربّاها أبوها لورنثو كورتشويلو وأمها ألدونثا نوغلاس على الحياء والحشمة.
- ماذا؟ ماذا؟ صاح سانشو- هل ابنة لورثنو كورتشويلو هي السيدة دولثينيا ديل توبوسو؟
- نعم، وهي التي تستحق اسم سيدة العالم- قال دون كيخوته.
- إنني أعرفها جيداً- قال سانشو- وأستطيع أن أقول إنّها بقوة رجل! يالقوتها ولصوتها! مرّة صعدت على برج كنيسة لكي تنادي فلاحين يعملون في مزرعة والدها وعلى الرغم من بعد المسافة والتي يقال أطول من نصف فرسخ فقد سمعوها وكأنهم بجانب البرج. والأحسن

من هـذا كله أنها تمازح الجميـع وتضحك وتهزل في كل مناسـبة. أقول لك الآن يا سيدي فارس الوجه الحزين إني أود أن أرحـل تواً لأحظى بلذة رؤيتهـا، ذلك أنني لم أرها منذ مدة طويلة ولا بد أن شـمس وهواء الحقل قد غيّرا من شـكلها وجسـمها. ولكن يجب علي أن أصارحك في أمر كنت جاهلاً فيه تماماً. لقد ظننت أن السـيدة دولثينيا لا بد أن تكون أميرة جديرة بالحب والأشياء التي تبادلها إياها.

- لقـد قلـت لك مراراً يا سانشـو- قـال دون كيخوته – إنك ثرثارٌ ولا بدَّ لك أن تعلم أن ما يثير الحب والعشـق أمران: الجمال والسـمعة الحسـنة. وهذان الأمـران متوافران في دولثينيا إذ لا يساويها أحد في الجمال ولا في السمعة.
- معـك حق في كل ما قلته يا مولاي- قال سانشـو- وما أنا إلا حمارٌ. أما الآن أعطني الرسالة.
- فقال دون كيخوته: اسمع

رسالة دون كيخوته
إلى دولثينيا ديل توبوسو

سيدتي المبجلة:

"إن قلبـي الجريح على غيابك يا سـيدتي الجميلة دولثينيا، يرسـل لك أحـرَّ أشـواقه. وإذا ازدراني جمالك ولم تشـمليني بعطفـك، وإذا ظلت قسـوتك تواليـني، فلن أقوى علـى البقاء واحتمـال هـذه المعانـاة. وإن حامل سـلاحي الطيب سانشـو سـيصف لـك الحال الذي أنا فيه من أجلـك، فإن طاب لك أن تنقذيني، فأنا لك، وإلا فافعلي بي ما يحلو لك وأنا راض هواك وقسوتك".

"المخلص لك حتى الممات

فارس الوجه الحزين"

- بحياة أبي!– صاح سانشو عندما سمع الرسالة– إنها أجمل وأسمى رسالة سمعتها في حياتي!
- كل شــيء مطلـوب في المهنـة التي أمارســها، أجاب دون كيخوته.

غادر سانشــو على روثينانته وهو متيقن أنَّ ســيده مجنونٌ لا محالة.

سانشو في طريقه ليوصل الرسالة

ويحكى أنَّ سانشو ما إن بلغ الطريق العام حتى مضى متوجهاً إلى توبوسو لإيصال الرسالة، فوصل الفندق الذي حدث فيه أن رموه في الهواء، وصمّم ألا يدخل على الرغم من أنه كان جائعاً ويرغب بتناول لقمة ساخنة. وحدث أن خرج من الفندق رجلان ما إن شاهداه حتى قال أحدهما للآخر:

- قل لي أيها الكاهن أليس هذا الذي يركب حصاناً هو سانشو بانثا، حامل سلاح صاحبنا المغامر؟
- بلى إنه هو- قال الكاهن- وهذا حصان صاحبنا دون كيخوته.

لقد عرفه الرجلان فهما قس القرية وحلاقها اللذان أحرقا كتب الفروسيّة، وكانا يعرفان قصة دون كيخوته. وهكذا اقتربا منه وقال له قس القرية:

- أي يا سانشو بانثا، أين هو مولاك؟

وعرفهما سانشو لكنّه قرر أن يكتم مكان سيّده وقال لهما إنه مشغولٌ في أمرٍ هام جداً.

- كلا يا سانشو- قال الحلاق- إن لم تقل لنا أين سيدك فسنقول إنك قتلته وسرقت ماله وحصانه الذي أنت عليه.
- لا داعي لتهديدي- أجاب سانشو- فأنا لست قاتلاً ولا سارقاً. إن مولاي في منتصف هذا الجبل معتزلٌ وفقاً لمشيئته.

وهكذا راح سانشو يخبر القس وحلاق القرية بالمغامرات التي مروا بها، وأنه الآن يحمل رسالة إلى السيدة دولثينيا ديل توبوسو ابنة لورنثو كورتشويلو، التي يعشقها دون كيخوته. دُهش الاثنان مما سمعاه من سانشو، وطلبا إليه أن يطلعهما على الرسالة التي يحملها إلى دولثينيا، فراح سانشو يبحث عنها ولكنه لم يجدها فقال لهما:

- لقد فقدت الرسالة إضافة إلى وثيقة وهبني من خلالها سيدي ثلاثة حمير.



- لا بأس عليك يا سانشـو، سـنطلب من مولاك أن يعوضها لك، ولكن الآن تذكّر لنا الرسالة وسنقوم نحن بكتابتها.

وبعد عدة محاولات تمكن سانشـو من تذكر الرسـالة وقام القـس وحـلاق القرية بنسـخها واندهـش الاثنان مـن الجنون الذي وصل إليه دون كيخوته وأخيراً قال القس:

- إن أهم شيء الآن هو أن نفكر في طريقة نخرج فيها صاحبنا المغامر من جنونه الذي هو فيه.

وأخيـراً وصل القـس إلى فكرة جيـدة مفادهـا أن يتنكر هو بـزي سـيدة نبيلة جوّالـة وأن يتنكّر الحلاق بزي حامل سـلاح وأن يذهبا إلى المكان الذي يعتكف فيه دون كيخوته، ويتظاهر القس بأنه سـيدة نبيلـة حزينة بحاجة إلى المسـاعدة لتنتقم من فارس غدر بها، وبهذه الطريقة نستطيع إعادة دون كيخوته إلى بيته ومن ثم نفكر في طريقة نخلصه فيها من جنونه.

بحثاً عن دون كيخوته

وهكذا بعد أن وضعوا خطة محكمة ذهب الثلاثة بحثاً عن دون كيخوته. وبعد أن مشوا شوطاً كبيراً، قال لهم سانشو إنَّ من الأفضل أن يسبقهم هو إلى مكان دون كيخوته وأن يعطيه جواباً على رسالته من دولثينيا لأن هذا وحده يكفي لإخراجه من جنونه. وهكذا سبقهم سانشو وتابع قس القرية والحلاق طريقهما.

وبينما كان قس القرية والحلاق يتبادلان أطراف الحديث بشأن صاحبنا دون كيخوته سمعا صوت بكاءٍ ونوحٍ يأتي من خلف الصخور، فاقتربا من مكان الصوت وإذ به شاب قيل إن اسمه كاردنيو. كان يبكي وينوح لأن حبيبته خانته. استمع قس القرية وحلاقها إلى قصته ووعدوه بمساعدته، ولكن المفاجأة

كانـت أكبر حينما سـمع الثلاثـة صوت بكاءٍ آخـر، ولكن هذه المرة كان صوت بكاء فتاة جميلة نبيلة، فعرفها كاردنيو بسرعة وقال:

- ألست أنت السيدة دوروتيا، ابنة الرجل الغني كليناردو؟
- ومن أنتم؟ ومن أين لكم أن تعرفوا اسمي؟ سألت دوروتيا.

وفي هذه الأثناء سُـمع صوت صراخٍ يقترب أكثر فأكثر وإذ بـه سانشـو يظهر من بين الصخور وكان قـد وجد دون كيخوته عاريـاً، نحيلاً، يكاد يموت من الجوع. وقال سانشـو إنه عندما أخبـره أن دولثينيـا تنتظـره في توبوسـو قال إنه لـن ينهض من مكانه قبل القيام بمغامرة تثبت أنه جديرٌ بحبها.

وبعـد أن سـمع قـس القريـة كلام سانشـو أخبـر دوروتيـا وكاردنيـو بقصـة دون كيخوتـه وبالخطـة التي كانا قـد رتبّاها، فقالـت دوروتيا إنها تسـتطيع تمثيـل دور النبيلة الجوالة أفضل مـن حـلاق القرية، فضلاً عن ذلك فقد قـرأت العديد من كتب الفروسـية. فوافق الجميع على ذلك وهكذا تحضروا للذهاب إلى دون كيخوته.

وما إن مشـوا مسافة قصيرة حتى وجدوا دون كيخوته مُلقىً بيـن الصخـور، وما إن رأتـه دوروتيا حتـى ألقت بنفسـها عند قدمي دون كيخوته وهي تقول:

- كلا، لن أنهض من مكاني هذا، أيها الفارس الشجاع، حتى تعطف عليَّ بفضلك فتزداد شـرفاً وشـهرةً وتخلصني من إهانة لم يسـبق لي أن تعرضت لها. وإن كانت قوة ذراعك جديـرة بشـهرتك، فإنـك مجبـرٌ على مسـاعدة فتـاة نبيلة جاءت من أقاصي الدنيا تطلب مساعدتك.
- سأساعدك أيتها النبيلة بشرط ألا يضر ما سأفعله من أجلك بوطنـي وشـرفي، أو بتلك التي بيدها مفتـاح قلبي. أجابها دون كيخوته
- كلا لن يضر بأيٍّ مما ذكرت أيها الفارس النبيل.
- فقـال دون كيخوته: فلينهض جمالك الرائع، فسأسـاعدك في طلبك يا سيدتي.
- فقالـت الآنسـة: إن ما أطلبه منـك أن تتفضـل وتأتي معي وأن تعدني بعدم الدخول في أية مغامرة قبل أن تثأر لي من خائن اغتصب ملكي.

- فقال دون كيخوته: أؤكد لك أني سأفعل ذلك، وبإمكانك الآن أن تمسحي عن وجهك هذا الحزن، فبعون الله وبفضل ساعدي هذا ستعودين قريباً إلى مملكتك. هيا بنا من هنا فكما يقول المثل: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد.

وبينما كانا في الطريق ظهر لهما من بين الأعشاب القس الذي كان مختفياً عنهم ويراقب دون كيخوته من بعيد، فما إن رأى دون كيخوته يقترب منه حتى صاح:

- أهلا وسهلاً بمواطني الشهير دون كيخوته دي لا منشا أشجع الفرسان الجوالين!

تفاجأ دون كيخوته بما سمعه ونظر جيداً في الرجل، وأخيراً استطاع أن يميزه من هو. أخبره القس أنه في طريقه إلى إشبيليا وأن بعض اللصوص سرقوه فلهذا السبب ليس معه حمارٌ يركب عليه.

وهكذا سار الجميع معاً، دون كيخوته على حصانه، الحلاق والقس على حمار الحلاق، السيدة دوروتيا على حمار سانشو، أما سانشو فقد سار مشياً على الأقدام. وفي

أثناء هذا قال دون كيخوته للسيدة النبيلة:

- اقتادينا إلى حيث شئت، يا سيدتي.

ولكن قبل أن تجيب قال قس القرية:

- إلى أي مملكة تريد حضرتك اقتيادنا؟ إلى مملكة ميكوميكون؟
- فأجابت دوروتيا لأنها كانت سريعة البديهة: نعم يا سيدي، إنني متوجهة إلى تلك المملكة.
- فقال القس: في هذه الحال لابدَّ من المرور في قريتنا، ومن هناك نسلك طريق قرطاجنة، وبعدها تستطيعين أن تكملي رحلتك بعون الله وحفظه.

الفصل العشرون

دون كيخوته يريد أن يعرف جواب دولثينيا على رسالته

وبينما كان الجميع في غمرة الحديث، كان دون كيخوته وسانشو يتجاذبان أطراف الكلام فقال له دون كيخوته:

- قل لي يا صديقي بانثا: كيف ومتى وأين وجدت دولثينيا؟ ماذا كانت تعمل؟ ماذا قلت لها؟ وبماذا أجابتك؟ وما التعابير التي ارتسمت على وجهها عندما قرأت رسالتي؟
- فأجاب سانشو: سأخبرك الحقيقة يا سيدي، لقد كانت تحمل كيسين من القمح في حوش منزلهم يا سيدي.
- فأجاب دون كيخوته لابدَّ أن حبات القمح تحوّلت إلى لؤلؤ عندما لمستها بيدها، ولكن الآن تابع يا سانشو، عندما سلّمتها رسالتي، هل قَبَّلتها؟ هل وضعتها فوق رأسها؟ ماذا فعلت؟

- فأجاب سانشـو: في اللحظـة التي قررت فيها أن أسـلمها الرسـالة كانت تنخل في الغربال مقداراً من القمح، فقالت لي: "ضـع هذه الرسـالة جانباً يا ولدي، فلـن أقرأها حتى أنتهي من عملي".
- يا لها من فتاة حريصة- قال دون كيخوته- لا بدَّ أنها أرادت أن تقرأها على مهل. ولكن اسـتمر، ماذا سألتك عني؟ هيا أخبرني بكل شيء.
- لم تسألني أي سـؤال- أجاب سانشو- أما أنا فقد أخبرتها بمـا كنت تفعله من أجلهـا، كيف أنك كنت عارياً تقفز بين الصخور معتزلاً من أجلها، لا تأكل ولا تشـرب وكل ذلك من أجلها.
- فقال دون كيخوته، معك حق يا سانشو كل هذا من أجلها.
- فأجابه سانشو: ولكنها طويلة جيداً يا سيدي؟ وأستطيع أن أقول إنها أطول مني بشبر.
- وكيف عرفت هذا يا سانشـو؟ هل قسـت نفسك بها؟ قال دون كيخوته.
- كلا، ولكننـي اقتربـت منهـا لأسـاعدها فـي وضـع كيس

القمـح على الحمـار ولاحظت أثناء ذلـك أنها أطول مني بشبر. أجابه سانشو.

- فقال دون كيخوته، عندما اقتربت منها، ألم تستنشـق عطراً رائعاً وأريجاً لطيفاً؟
- فأجابه سانشو: كل ما أستطيع قوله هو أنني شممت رائحة كرائحـة الرجـال، لابدَّ أنها كانـت تتصبب عرقـاً من كثرة العمل.
- فأجابه دون كيخوته: كلا ليس الأمر كذلك، لابدَّ أنّك كنت تعاني الزكام، أو كنت تشـم رائحة نفسـك لأنني أعرف أن رائحتها مثل رائحة الورد في الحقل.
- فأجابـه سانشـو: ربّمـا كان ذلـك، لأنـني دائماً أشـم تلك الرائحـة نفسـها خارجة منـي، والتي بدت لـي خارجة من السيدة دولثينيا.
- فتابـع دون كيخوتـه، ولكـن مـاذا فعلـت بعـد أن قـرأت رسالتي؟
- فأجابه سانشـو، أما الرسـالة فلم تقرأها لأنها كما قالت لا تعـرف القراءة ولا الكتابة، فما كان منها إلا أن مزّقتها لكي

لا يعرف أهل القرية أسـرارها، ويكفيها ما سمعته مني عن حبـك لها يا مـولاي وما تقوم به من مغامـرات من أجلها. ولهـذا فهـي ترجوك فـي الحال أن تتـرك الأحـراش التي أنت فيها وأن تذهب فوراً إلى توبوسـو، لأنها تموت شوقاً لرؤيتك.

- ولكن قل لي يا سانشـو- سأله دون كيخوته- ماذا عليَّ أن أفعـل الآن؟ ذلك علـى الرغم من أني ملـزم بالذهاب إلى توبوسو إلا أنه عليَّ أن أفي بوعدي لهذه السيدة.
- هـذا واضـح يا سـيدي- أجابه سانشـو- اتـرك الآن زيارة السـيدة دولثينيا، ولنذهـب لقتل ذلك المـارد ولننتهي من هذه المسألة التي ستدُّر علينا ربحاً وفيراً.
- فقـال دون كيخوتـه: إنّـك علـى حق يا سانشـو، وسـأتبع نصيحتك بالذهاب أولاً لمساعدة السّيدة ومن ثمّ الذهاب لرؤية دولثينيا.

الفصل الحادي والعشرون

معركة دون كيخوته مع خوابي النبيذ

وبينما كان الجميع يتبادلون أطراف الحديث، وصلوا إلى الفندق فخرج صاحب الفندق وزوجته وابنته إضافة إلى الخادمة ماريتورنيس لاستقبال دون كيخوته وسانشو. وطلب دون كيخوته إليهم أن يحضّروا له سريراً أفضل من السرير الذي نام عليه في المرة الماضية

وبينما كان الجميع يأكلون ويشربون ويتحدثون وهم يعتقدون أن دون كيخوته كان نائماً ليرتاح، خرج سانشو من الغرفة التي كان يستريح فيها مع سيده وهو يصيح:

- أسرعوا يا سادة لمساعدة مولاي، فهو يخوض أشرس معركة شاهدتها في حياتي. الحمد الله لقد طعن المارد العدو للسيدة الأميرة ميكوميكونا بالسكين!.

وفي الوقت نفسه سمعوا ضوضاء شديدة من الغرفة، إضافة إلى صوت دون كيخوته وهو يصيح:

- كف أيها اللص اللعين، أنت في قبضتي ولن يفيدك سيفك في شيء.

فقال سانشو:

- هيا ادخلوا يا سادة، وهبُّوا لمساعدة سيدي، إذ لا شك أنّ المارد قد قُتل ومات، فلقد شاهدت دمه يسيل على الأرض.

فقال صاحب الفندق:

- فليقتلوني إن كان دون كيخوته لم يطعن بسيفه خوابي النبيذ الموجودة فوق رأسه في الغرفة.

وهكذا دخلوا الغرفة ووجدوا دون كيخوته يلبس قميصاً قصيراً ويمسك بيده اليمنى سيفه ويلوح به في كل الاتجاهات. والطّريف في الأمر أن عينيه كانتا مغمضتين، إذ كان يحلم أنه يصارع مارد مملكة ميكوميكون. وكان من كثرة انفعاله قد طعن خوابي النبيذ، حتى فاض النبيذ كله في الغرفة.

فلما شـاهد صاحـب الفندق هذا، غضب كثيـراً، وقفز على دون كيخوتـه وراح يهـوي عليـه باللكمات إلـى أن أبعده قس القريـة عنه. في أثناء هذا كان سانشـو يبحث عـن رأس المارد المقطوع وهو يقول بصوتٍ عالٍ:

- إننـي أرى كل شـيء في هـذا المنزل مسـحور: فـي المرة الماضيـة تلقيـت لكمـاتٍ دون أن أعـرف مـن يضربنـي، والآن لا أرى رأس المـارد الذي شـاهدت سـيدي يقطعه عن جسده وراح الدم ينفر منه كالنافورة.
- فقـال صاحـب الفنـدق: عـن أي دمٍ وأي نافـورة تتكلم؟ ألا تـرى أيهـا الوغد أن هـذا الدم ليس إلا نبيذاً يسـقط من الخوابي التي طعنها سيدك؟
- فأجابـه سانشـو: لا أعـرف شـيئاً أبـداً سـوى أننـي تعيس الحظ، لأني إن لم أجد رأس المارد سـأفقد قطعة الأرض التي سأحكمها.

في تلك الأثناء أمسـك القسّـيس بيـدي دون كيخوته الذي ظنّ نفسـه قـد أنهى المغامرة وأنّه أمام أميـرة ميكوميكون فجثا على ركبتيه وراح يقول:

- الآن أيتها السـيدة العظيمة يمكنك أن تعيشي بأمانٍ وسلام دون أن تخافـي السـوء مـن ذلك المـارد الشـرير، وها قد وفيتُ اليوم بكلمتي وعهدي لك.

فقاطعه سانشو قائلاً:

- ألـم أقـل لكم، لـم أكن ثملاً لقـد قطع مـولاي رأس ذلك المارد اللعين.

لـم يسـتطع الحاضرون أن يتمالكوا أنفسـهم مـن الضّحك على دون كيخوته وسانشـو. لقد ضحك الجميع عدا صاحب الفنـدق وزوجته. فـراح القـسّ يطيّب خاطر صاحـب الفندق ووعده بدفع ثمن خوابي النبيذ.

الفصل الثاني والعشرون

العودة إلى المنزل

وكان قد مضى يومان على هذه المغامرة فقرر قسّ القرية وحلاقها وضع حد لجنون دون كيخوته، وإعادته إلى منزله لمعالجته هناك من الجنون الذي يعانيه. وكانا قد اتفقا مع سائق عربة يمر من هناك ليضع دون كيخوته فيها بالشكل التالي: أمروا بصنع قفص من خشب وأن يتنكّر الجميع بأشكال مختلفة، بحيث لا يعرفهم أحد ولا حتى دون كيخوته، فيدخلون جميعاً في صمت إلى غرفة دون كيخوته، حيث ينام ويستريح ويربطونه ويضعونه في القفص. ولما استيقظ دون كيخوته ورأى نفسه مربوطاً عاجزاً عن الحركة، اعتقد أنّ هذه الوجوه التي ربطته هي أشباح القلعة المسحورة التي هو فيها. وهكذا تمّ كلّ شيء كما رتّبه قس القرية وحلّاقها.

ولما حملوا دون كيخوته وأخرجوه من الغرفة، سُمِعَ صوتٌ رهيبٌ وكان صوت الحلاق وهو يقول:

- أيها الفارس الحزين الوجه! لا تحزن إذا رأيت نفسك الآن مسجوناً، لأنه لابدَّ من وضع حدٍّ لمغامراتك التي حملتك عليها شجاعتك. ستنتهي هذه المغامرة عندما يصبح أسد إقليم المنشا وحمامة توبوسو البيضاء شخصاً واحداً بعد زواجهما المقدس. وأنت يا حامل السلاح النبيل والشجاع، لا تحزن إذا رأيت زهرة الفرسان الجوالين يقاد على مرأى من ناظريك بهذه الطريقة، ولكن الوعود التي قطعها عليك سيدك لن تذهب سدىً.

عندما سمع دون كيخوته هذا الصوت الذي خاله صوت وحي ارتاح قليلاً لأنه عرف أنه سيرتبط ارتباطاً مقدساً مع حبيبته دولثينيا. فقال وهو يتنهد بعمق:

- أنت، أيّاً من كنت، يا من يعدني بهذا المستقبل الجميل، استحلفك أن تطلب من الساحر الحكيم ألا يدعني أموت في السجن، حتى تتحقّق هذه الأماني التي وعدتني بها.

وفي هذه الأثنـاء رفعوا دون كيخوتـه ووضعوه في القفص علـى العربة التي تجرها الثيران. ولمّا رأى دون كيخوته نفسـه موضوعاً في القفص على هذا النحو راح يقول:

- لقد قـرأت كثيراً من قصص الفرسـان الجواليـن، ولكنني لـم أقرأ أبداً ولم أسـمع ولم أر أن الفرسـان المسـحورين يُسـاقون بهذه الطريقة، وبهذا البطء. لقـد جرت العادة أن يحملـوا بالهواء عبر غيمة سـريعة أو في عربة نارية. ولكن ربمـا كانت أنواع السـحر فـي زماننا مختلفة عـن الأزمان الأخرى.

وأخيراً وبعد مسـير سـتة أيـام وصلـوا إلى القريـة، وعبروا السـاحة وكان النـاس مجتمعيـن في الميـدان، فهرعـوا كلهم لرؤيـة من كان فـي العربـة، فلما عرفوا أنـه ابن قريتهـم، ظلوا حائريـن مذهولين. وركض صبي صغيـر لإخبار الخادمة وابنة أخ دون كيخوته أن سيدهما قد وصل. فراحتا تبكيان وتلطمان وتسبّان كتب الفروسية خصوصاً لما دخل دون كيخوته بيته.

أما زوجة سانشـو فهرعت إلى زوجها عندما علمت بقدومه

وكان اسمها خوانا بانثا وراحت تسأله عن الحمار، فأجابها سانشو:

- إنه أحسن حالاً مني.

وطلب قس القرية من الخادمة وابنة أخيه الاعتناء به كي لا يهرب مجدداً. وهكذا انتهى خروج دون كيخوته الثاني بانتظار مغامرات جديدة نأمل أن تقع.

الجزء الثاني

دون كيخوته دي لا منشا

استهلال

مـن المؤكد – عزيزي القارئ– أنك كنت تنتظر بلهفة في هذا الاسـتهلال أن تـرى نوعـاً من الانتقـام من مؤلـف دون كيخوته الثانـي[1]. ولكننـي لن أحقق لك هذه الرغبـة، فلقد جرت العادة أن تثير الشتائم الغضب في القلوب الجبانة، ولكنها تثير النقيض فـيَّ. مـن المؤكّـد أنـك تـود– عزيـزي القـارئ– أن أجرحه في الـكلام، ولكننـي لن أفعل ذلك لأن الأمر كلـه لا يعنيني. غير أنّ أشـدّ مـا آلم في نفسـي أن يقول عنـي إني عجوز بـذراعٍ واحدة، وكأنَّ بمقدوري أن أوقف عجلة الزمان، أو كأن يدي قد تحطمت في إحـدى الحانات لا في أعظم معركة تسـتحق الخلود عرفتها القـرون الماضية وسـتعرفها القرون الحاضرة والمسـتقبلة. وإنَّ الجنـدي الـذي يصاب في معركـة لأفضل بكثير مـن ذلك الذي

(١) إشارة إلى ألونسو فيرناندز دي آفيانيدا الذي نشر في عام ١٦١٤ الجزء الثاني المزور من دون كيخوته.

يهرب. وإني لأفضِّل أن أكون في تلك المعركة بجراحي على أن أكون قد خرجت منها معافى من دون إصابة.

ولقـد آلمني أيضـاً أن ينعتني بأني حاسـد، وأنّي من الجهل بحيث أحتاج من يعلمني الحسـد. أقسـم بشرفي إني لا أعرف نوعاً من الحسد إلا الحسد النبيل.

ولا أودُّ أن أقـول شـيئاً إضافياً، إذ إنـه لا ينبغي زيادة أحزان علـى رجـل حزين، وأحزان هـذا الكاتب كبيـرة، فهو لا يجرؤ على الظهور في وضح النهار، ليعرّف باسمه واسم بلده كما لو أنه كان مرتكباً لجريمة الخيانة. وإن صادف أن تعرفت عليه- عزيزي القارئ- فقل له، نيابةً عني، إني لا أشعر بالإهانة، وإني أعلـم تمام العلـم إغواءات الشـيطان، ومن أعظمهـا أن يعتقد إنسان أنَّه قادر على كتابة وطباعة كتاب يدرُّ له شهرة ومالاً.

يكفـي أن أنبهك -عزيزي القارئ- أن هذا الجزء الثاني من دون كيخوته دي لا منشـا مكتوب من الكاتب نفسه الذي كتب الجزء الأول، وفيه أقدّم لك دون كيخوته في مغامراته، وأخيراً في وفاته ودفنه كيلا يجرؤ أحد أن ينسب إليه مغامرات جديدة من حياته.

قس القرية وحلاقها يزوران دون كيخوته في بيته

يـروي كاتب القصـة في الجـزء الثاني منها، الـذي يتضمن الخـروج الثالـث لـدون كيخوته أنّ قِـسَّ القريـة وحَلّاقها ظلّا قرابة شـهر مـن الزمان لا يريـان دون كيخوته لكـي لا يذكّرانه بالذي جرى. غير أنّهما كانا يزوران ابنة أخيه والخادمة ويطلبان منهمـا أن تقدما له طعامـاً جيداً مغذياً للقلـب والعقل. فأجابتا أنهما تفعلان هذا وأن سيدهما يبدو عليه أن بدأ يتعافى.

وأخيـراً قـررا زيـارة دون كيخوتـه ودخلا عليه فـي الغرفة، فوجداه جالسـاً على سريره لابسـاً قميصاً أخضر وواضعاً قبعة النـوم. كان هزيلاً وقد بدا لهما أنه شـبه ميت. اسـتقبلهما دون كيخوته أحسـن اسـتقبال وأظهر لهما أنه في تمـام عقله. وأراد كاهـن القرية أن يتأكد من شـفاء دون كيخوته نهائياً فحدثه عن

الأخبار التي وصلت إلـى القصر الملكي مؤخراً والتي مفادها أن الأتـراك أبحروا بأسـطول قوي وكبير ولكن لـم تعرف بعد وجهة هذا الأسطول. وعندما سمع دون كيخوته بهذا قال:

- لو سـألني جلالة الملك النصيحة، لأسديت له نصيحة لم يأخذها بعين الحسبان.

عندمـا سـمع قِسّ القريـة كلام دون كيخوته قال في نفسـه: فليحفظـك اللـه يا دون كيخوته المسـكين، أعتقـد أنك عدت إلى جنونك. في أثناء هذا جالت في بال الحلاق أن يسأل دون كيخوتـه عن النصيحة، التي لم يأخذهـا الملك بعين الاعتبار، فأجابه دون كيخوته:

- وهـل هناك خطـة أفضل من أن يأمر الملـك أن يجتمع في قصره جميع الفرسـان الجوالين الموجودين في إسـبانيا؟ فحتى لو لم يحضر إلا ستة فرسان فهذا يكفي للقضاء على أسـطول السـلطان التركي. أفـلا يكفي فـارس واحد فقط للقضـاء علـى جيش مؤلف مـن مائتي ألف رجـل؟ أليس تاريخنـا حافل بهذا النوع مـن العجائب؟ لو كان حيّاً اليوم



أحد من ذرية آماديس الغالي وهاجم الأتراك، أما كان قادراً على هزيمتهم؟. ولكن الله لن ينسى شعبه وسيبعث لهم بفارس جوال يساوي بشجاعته فرسان العصور الماضية.

- يا ويلي– صرخت ابنة أخيه– فليقتلني الله إن لم يكن في نية عمي أن يصبح فارساً جوالاً من جديد.
- فأجاب دون كيخوته: لا بدَّ من أن أموت فارساً جوالاً وليأت الأتراك متى يشاؤون.

الفصل الثاني

دون كيخوته يتحدث مع سانشو

وبينما كان دون كيخوته يتابع حديثه مع كاهن القرية وحلّاقها عن المردة والفرسان الجوالين، سمعوا في الممر ضجيجاً عالياً، فأسرعوا لرؤية هذه الضوضاء وإذ به سانشو يتجادل مع ابنة أخ دون كيخوته وخادمته.

- ماذا يريد هذا المتشرد من هذا البيت؟ قالت الخادمة– عد إلى بيتك يا أخي فأنت السبب في إفساد سيدنا.
- فأجابها سانشو: يا خادمة الشيطان! إنّ سيّدك من جاب بي في أركان هذا العالم، وهو الذي انتزعني من بيتي ووعدني بحكم جزيرة، ما زلت أنتظره حتى الآن.
- فأجابته ابنة الأخ: ومع هذا لن تدخل هذا البيت أيها الرجل الفاسق الخسيس، اذهب واحكم بيتك، واحرث حقلك وانس أمر الجزر.

وعندما سمع دون كيخوته هذا أمر السيدتين أن تدعا سانشو يدخل، أما قس القرية وحلاقها فكانا مندهشين من هذا النزاع، فودّعا دون كيخوته يائسين من شفائه.

ودخل دون كيخوته غرفته مع سانشو وأغلقا الغرفة وقال دون كيخوته لسانشو:

- آلمني جداً يا سانشو أن تقول إنني انتزعتك من بيتك، وأنت تعلم جيداً أني لم أبق في بيتي. لقد خرجنا معاً، وكنا معاً، وسافرنا معاً، وكان حظنا واحداً ومصيرنا واحداً، وإن كنت ضُربت مرة واحدة، فقد ضربوني مئات المرات.
- هكذا حدث- أجابه سانشو- لأنك تقول دائماً إنَّ الحوادث المؤسفة تصيب الفرسان الجوالة أكثر مما تصيب حملة سلاحهم.
- أنت تخطئ يا سانشو- قال دون كيخوته،- لأنه إذا تألم الرأس، تتألم باقي الأعضاء، وأنا الرأس وأنت أحد أعضائي لأنك خادمي. ولهذا السبب فإن الألم الذي يصيبني سيصيبك وبالعكس أيضاً.

- فأجاب سانشو: هكذا يجب أن تكون الأمور بيننا.
- فقال له دون كيخوته: دعنا من هذا يا سانشو وقل لي الآن، مـاذا يقولـون عني؟ ومـا رأي عامـة الناس والفرسـان في أعمالي؟ ماذا يقولون عن بطولاتي وشـجاعتي؟ قل لي يا سانشو دون أن تنقص أو أن تزيد حرفاً واحداً، فلو وصلت الحقيقة كما هي إلى الأمراء، لجرت الأمور بشكلٍ أفضل.
- أقول أولا يا سيدي وأرجو ألا تغضب مني، إن عامة الناس تقـول عنك إنـك مجنـونٌ كبير، وإنـي أحمق. أمـا النبلاء فيقولـون عنـك إنـك منحت نفسـك لقـب "دون" ولقب فـارس مـع أنك لا تملك إلا أربع أقـدام من الأراضي. أما عـن شـجاعتك وبطولاتك فقـد اختلفـت الآراء: بعضهم يقول إنك مجنون ولكنك مضحك؛ وبعضهم الآخر يقول إنك شجاع ولكن تعيس الحظ.
- انظر يا سانشو- قال دون كيخوته- إن الفضيلة أينما كانت تُضطَّهد، وقليلٌ فقط من الرجال الشـهيرين اسـتطاعوا أن ينجوا منها. فيوليوس قيصر ذلك الرجل الشجاع، العاقل، اتّهمـوه أنه طموح؛ الاسـكندر الأكبر قالوا عنه إنه سـكير

وعن كثيرين غيره. فقل شيئاً آخر إذا كان عندك.

- فقال سانشو هنا تكمن المشكلة.
- أهنالك شيءٌ آخر؟- سأل دون كيخوته.
- نعم يا سيدي - أجاب سانشو- فإذا أردت أن تعرف ما يُشاع عنك أستطيع أن أحضر لك رجلاً يخبرك كل شيء. إنه صاحب الإجازة سانسون كرسكو، الذي جاء بعد أن تخرج من سلمنكا وهو يقول إن قصتك قد شاعت في كل الدنيا تحت عنوان " الشهير النبيل دون كيخوته دي لا منشا" وقد ذُكر اسمي أيضا في هذه القصة "سانشو بانثا" إضافة إلى اسم السيدة "دولثينيا ديل توبوسو"، إضافة إلى أمور أخرى جرت معنا ولست أعرف كيف استطاع ذلك المؤرخ أن يعرفها.
- أؤكد لك يا عزيزي سانشو- أجابه دون كيخوته- أنَّ هذا المؤرخ هو ساحر حكيم كتب قصتنا وهؤلاء لا يخفى عليهم شيء.
- كنت لأصدق أنه ساحر لو لم يقل سانسون كرسكو أنَّ اسمه سيدي حامد برنجانة.

- هذا اسمٌ مغربي قال دون كيخوته.
- فأجابه سانشو: معك حق يا سيدي لأنني سمعت أن المغاربة يحبون الباذنجان كثيراً. وإذا أردت أن تعرف أكثر عما يقولونه عنك فأستطيع أن أحضر لك صاحب الإجازة.
- فأجاب دون كيخوته هذا يسرني جداً يا صاحبي. إن ما قلته يجعلني في دهشةٍ ولهفة بالغة ولن أستطيع أن أهدأ قبل أن أسمع كل شيء.

وهكذا غادر سانشو بحثاً عن صاحب الإجازة.

- ١٣٦ -

الفصل الثالث

حديث دون كيخوته وسانشو وصاحب الإجازة عن الكتاب الذي يروي قصة دون كيخوته

استقبل دون كيخوته صاحب الإجازة كرسكو بأدبٍ كبير. كان كرسكو رجلاً صغير الحجم، ذكي وكان عمره خمسةً وعشرين عاماً تقريباً. كان مستدير الوجه، أفطس الأنف وفمه كبيرٌ جداً، وكان يحب السخرية جداً فأول ما شاهد دون كيخوته جثا على ركبتيه وقال له:

- سيدي دون كيخوته دي لا منشا اسمح لي بتقبيل يديك لأن عظمتك أشهر فارس جوال على سطح هذه الأرض. وإني أهنِّئ سيدي حامد بن الأيل، لأنه كتب تاريخ مغامراتك العظيم وبطولاتك.

فأنهضه دون كيخوته وقال له:



- صحيحٌ إذاً أن تاريخي قد كتب وأن الكاتب هو حكيم مغربي؟
- فأجابه صاحب الإجازة: نعم يا سيدي صحيح إلى درجة أنه إلى يومنا هذا قد طُبِعَ اثنا عشر ألف نسخة من قصتك، وأظن أنه لن توجد أمة لن تترجم هذا الكتاب إلى لغتها.
- فقال دون كيخوته: إن أحد الأشياء الهامة التي تسعد المرء هي أن يرى نفسه في الحياة مكرماً، وبسمعة حسنة بين أفواه الناس جميعاً.
- فأجابه كرسكو: إذا كان الأمر يتعلّق بالاسم والسّمعة الحسنة، فإن حضرتك تفوق كل الفرسان الجوالين، لأن كاتب القصة صوَّر بسالتك وتكلَّم عن شجاعتك وعن حبِّك للسيدة دولثينيا ديل توبوسو.
- قل لي يا سيد كرسكو- سأله دون كيخوته- وما هي البطولات التي برزت في هذه القصة؟
- فأجابه صاحب الإجازة: لقد اختلفت الآراء في هذا يا سيدي، فبعضهم يفضّل مغامرة طواحين الهواء التي بدت

لك على أنها مردة؛ وبعضهم الآخر يفضّل معركة الجيشين اللذيـن كانا قطيعين من الأغنام؛ والكثير من الناس يفضّل معركتك مع الينجواسـيين، إضافة إلى ذلك فهم يتحدّثون أيضاً عن قذف سانشو في الغطاء.

- فقال سانشو: لم يكن في الغطاء وإنّما في الهواء.
- فأضـاف دون كيخوتـه أعتقد أنّه لا توجد قصـة في العالم ليـس فيهـا تبايـن بيـن الخيـر والشـر، خصوصـاً قصـص الفرسـان الجوالين إذ لا يمكن أن يكون الانتصار حليفهم باستمرار.
- فقـال كرسـكو: هـذا صحيـح، لأن بعضهم يقـول إنه كان بإمكان الكاتب أن يحـذف بعض الضربات التي تعرّضت لها يا سيدي دون كيخوته.
- من المؤكّد أنّهم يتحدّثون عني أيضاً - قال سانشـو- ذلك أنني واحد من الشخصيات الرئيسية في العمل.
- أكيدٌ يا سانشـو- قال كرسـكو- فأنت الشخصية الثانية في القصة. وبعضهم يفضل أن يسمع حديثك أكثر من كثيرين فـي هـذه القصة. ولكن مـع هذا بعضهم يقـول إنك مغفل

لاعتقادك أنك ستحكم الجزيرة.

- فقال دون كيخوته: لا زال هناك وقت، وكلما كبر سانشو في السن سيدخل في تجارب أكثر، وسيكون أقدر على تولي حكم الجزيرة.
- بحق الآلهة يا سيدي- إذا كنت وأنا بعمري هذا لم أحكم جزيرة، فلن أحكم وأنا بعمر جد نوح[1].
- فقال دون كيخوته: اطلب هذا من ربك يا سانشو، فقد تسير الأمور أحسن مما تتصور بكثير.
- فقال كرسكو: إذا أراد الله حصل سانشو على آلاف الجزر ليحكمها.
- فقال سانشو : لقد سمعت بحكّام يحكمون وهم أدنى مني مستوى، ولكن في نهاية الأمر يا كرسكو، لا أريد أن أتجادل أكثر في الأمر، سأذهب الآن إلى بيتي فأنا أتضوَّر جوعاً، وبعدها سأعود ونتحدّث بما ترغبان.

(١) يقال إن جد نوح كان يدعى Matusalen وقد عاش، وفقاً للإنجيل، ٩٦٩ سنة.

الفصل الرابع

دون كيخوته يخطط لخروج جديد

وعندما عاد سانشو إلى منزل دون كيخوته سمعا صهيل روثينانته وقام دون كيخوته بتفسير ذلك على أنه طالع حسن، وجعله هذا يقرر الخروج مرة ثالثة خلال ثلاثة أو أربعة أيام. وأخبر كرسكو بفكرته فنصحه أن يذهب إلى مدينة سرقسطة في مملكة أراغون حيث سيقام احتفال بمناسبة عيد القديس جورج وهناك ستقام مباريات بين الفرسان ويستطيع دون كيخوته أن يبرز قوتّه على جميع الفرسان الأرغويين. ورجاه كرسكو أن يأخذ حذره مع الفرسان الأقوياء، لأن حياته ليست ملكه، بل ملك كل من هو بحاجتها من البائسين.

فقاطعه سانشو قائلاً:

- معك حق يا سيدي، لأن بين طرفي الجبن والتهور توجد الشجاعة، وأنا لا أريد لسيدي أن يهرب دون داع، ولاأريده

أن يهاجم حينما يتطلب الأمر شيئاً آخر. وعلاوة على هذا كله، فإني أنبّه مولاي أنّه إذا أراد أن يأخذني معه فبشرط أن يشــارك هو وحده في المعارك، أما أنا فأهتّم بكل ما يتعلق بأمــور الطعــام والتنظيف. ولكن أن يطلــب مني أن أحمل السـيف فهـو يطلـب المسـتحيل فأنـا لا أطمح يا سـيدي إلى الاشــتهار بالشــجاعة، ولكنني أطمـح أن أكون أفضل وأخلص حامل سلاح خدم فارساً جوالاً.

- فقال كرسـكو: إن كلامك حكمٌ يا أخي سانشو، ولكن ثق باللـه وبسـيِّدك دون كيخوتـه اللذين سـيمنحاك لا جزيرة وحسب وإنما مملكة.

- فقال سانشــو: إنني بصحةٍ جيدة بحيث أسـتطيع أن أحكم جزراً وممالك.

- انتبه يا سانشــو- قال كرسكو- فإذا صرت حاكماً قد تنسى أمك التي ولدتك.

- فأجابه سانشــو: إن هذا لا يحدث مع النــاس الطيبين، فأنا لاأنسى أصلي أبداً.

وهكـذا اتفقـوا على أن يغـادروا خلال ثمانية أيـام، وطلب دون كيخوته من صاحب الإجازة أن يبقي الأمر سراً، خصوصاً أمام حـلاق القرية وكاهنها إضافة إلى ابنة أخيه والخادمة لكي لايمنعـوه مـن الخـروج. ووعده كرسـكو أنـه لن يخبـر أحداً وطلب إليه أن يخبره بكل ما سيحدث معه من مغامرات.

دون كيخوته يتجادل مع خادمه سانشو حول أجره

وصل سانشو إلى منزل سيده دون كيخوته وعندما رأته الخادمة سارعت إلى التّخفّي عنه كي لا ترى وجهه. خرج دون كيخوته لاستقباله بذراعين مفتوحين وأغلقا عليهما الغرفة وجرى بينهما حديث مطوّل.

ولم تكد الخادمة ترى سانشو يدخل غرفة دون كيخوته حتى عرفت أنَّ هذا الاجتماع بينهما سيقرّر خروج دون كيخوته الثالث. فما كان منها إلّا أن لبست معطفها وخرجت لرؤية صاحب الإجازة سانسون كرسكو، معتقدةً أنه يستطيع أن يقنع سيّدها بالعدول عن فكرته الجنونية. عندما رآها كرسكو مضطّربة حزينة قال لها:

- ماذا جرى أيتّها السيدة الخادمة؟

- إن سيدي يريد أن يخرج مرة جديدة في أرجاء هذا العالم بحثاً عمّا يسمّيه مغامرات؛ وأنا لا أعرف لماذا يطلقون عليها هذا الاسم إذ دائماً ما يعود المرء منها وهو مكسور.

- فأجابها صاحب الإجازة: إذا كان الأمر كذلك فلا تقلقي. هيا عودي إلى منزلك وحضّري لي شيئاً ساخناً آكله فأنا قادمٌ في الحال.

عادت الخادمة إلى المنزل، وذهب صاحب الإجازة بدوره لرؤية قسّ القرية ليخبره بما سنذكره فيما بعد.

في هذه الأثناء كان دون كيخوته وسانشو يخططان لخروجهما القريب.

- سيدي– قال سانشو– لقد أقنعت زوجتي بالسماح لي أن أذهب مع حضرتك حيثما أردت أن تأخذني.
- وماذا تقول زوجتك؟ سأله دون كيخوته.
- فأجابه سانشو: زوجتي تقول إنَّ عصفوراً باليد أحسن من عشرة على الشجرة، وإن هذا معناه أن تعطيني حضرتك

مرتّباً محدّداً عن كل شهر أخدمك فيه وأن يكون هذا المرتب نقداً بحيث لا يكون مكافآت، لأن المكافآت قد تأتي وقد لا تأتي. في نهاية الأمر أريد أن أعرف ماذا أكسب، قليلاً أم كثيراً؛ فطالما يكسب الإنسان شيئاً فهو لا يخسر شيئاً. ولو حدث أن منحتني الجزيرة- وهو أمرٌ أشك فيه- فإنني سأحسم أجري من أرباح هذه الجزيرة.

- لقد فهمتك جيداً يا سانشو- أجابه دون كيخوته- وأعرف تماماً ماذا تفكر. انظر يا سانشو كنت سأعطيك مرتباً لو أنني وجدت في كتب الفروسية مثالاً يمكّنني من أن أعرف ماذا يكسبه حامل السّلاح. لا أذكر أني قرأت أن الفرسان يدفعون مرتباً؛ وكل وما أعرفه أن حملة السلاح يخدمون أسيادهم، وإذا حالفهم الحظ فإنهم يكافؤون بجزيرة. وهكذا يا سانشو إذا كنت مقتنعاً بهذه الآمال فتستطيع أن تخدمني. والآن بإمكانك أن تذهب إلى بيتك وأن تخبر تيريسا بما قلته لك. فإذا أعجبكما أنت وتيريسا ما قلته فأهلاً وسهلاً، وإلا فدعنا نفترق كأصدقاء. واعرف جيداً يا سانشو أن الأمل الطيّب أفضل من الامتلاك القليل

وأقول لك هذا لتعرف إني أستطيع أن أقول مثلك الأمثال.
في نهاية الأمر أقول لك إنني أستطيع أن أجد حامل سلاح أكثر طاعة وأقلّ ثرثرة.

عندما سمع سانشو بهذا حزن قلبه لأنه لم يكن ينتظر من مولاه أن يذهب من دونه ولو من أجل مرتّبات العالم بأسرها. وظلّ سانشو يفكّر بهذا فدخل عليهما سانسون كرسكو ومعه الخادمة وابنة أخ دون كيخوته وكانتا متلهفتين لمعرفة كيف سيقنع صاحب الإجازة سيدهما دون كيخوته بالعدول عن مشروعه.

حضن صاحب الإجازة دون كيخوته عندما رآه وقال له:

- يا زهرة الفروسيّة الجوّالة! يا نور الأسلحة! إنّ مشيئة الله هي أن يمنع أيّ شخص من الوقوف أمام رغبتك في الخروج. وأنت أيتّها الخادمة توقفي عن قراءة الصلوات، فإن قرار سيدك بالخروج في المغامرات حازمٌ؛ لقد حان الوقت لكي يخرج في مغامراته، ويساعد اليتامى، ويحمي

شـرف السـيّدات النّبيلات. لذلك يا سـيدي دون كيخوته تسـتطيع أن تذهـب اليوم قبـل غد وإني لأتوسـل إليك أن تدعني أخدمك كحامل سلاح.

فعندما سمع دون كيخوته هذا التفت إلى سانشو وقال له:

- ألـم أقل لك يا سانشـو إنه لا ينقصني حملة سـلاح؟ انظر مـن يتطوع ليكـون حامل سـلاحي، إنه صاحـب الإجازة الرائع سانسـون كرسكو. غير أنني معاذ الله أن أوافق على أن أنتزعه من عمله بالآداب والفنون. فلتبقَ يا سانسون في وطنك وأنا سـأرضى بأي حامل سـلاح فسانشو لا يرغب بذلك.

- فقـال سانشـو والدّموع فـي عينيه: نعم أرغب. لن أسـمح لأحد أن ينعتني بأنني ناكر للجميل ومحطِّم لقوتنا، ناهيك يا سـيدي أنك فضّلتنـي على غيري، وإذا كنـت قد طلبت منـك مرتبـاً فكان ذلـك تلبيةً لرغبـة زوجتي. فلنسـر على الطريـق يا سـيدي متـى تريد وها أنـا أقدم نفسـي كأفضل حامل سلاحٍ عبر العصور.

وأخيـراً عانـق دون كيخوته وسانشـو بعضهمـا الآخر وبقيا

صديقين. تمَّ الاتّفاق على أن يتم الرّحيل خلال ثلاثة أيام وفي تلك الأثناء يرتّبان كل ما يحتاجانه للسفر. بالنسبة لابنة الأخ والخادمة راحتا تصبّان اللّعنات على صاحب الإجازة لأنّه كان السّبب في خروج دون كيخوته الثالث. غير أنّهما لم تعرفا أنّ صاحب الإجازة تصرف بهذا الشكل، وفقاً لنصيحة قسّ القرية وحلاقها.

وهكذا بعد أن رُتِّب كلّ شيء غادر دون كيخوته وسانشو أثناء المساء دون أن يراهما أحد عدا صاحب الإجازة. وكان دون كيخوته على روثينانته وسانشو على حماره في طريقهما إلى توبوسو.

الفصل السادس

دون كيخوته وسانشو يدخلان إلى توبوسو

كان الليـل قد انتصـف عندما وصل دون كيخوته وسانشـو إلى توبوسـو. كانـت القرية صامتـة هادئة لأن سـكّانها جميعاً نائمون. كان اللّيل جميلاً صافياً غير أنّ سانشـو أراده أن يكون دامس الظّلمة، لكـي يجد في هذا الظلام عذراً عن عدم معرفة مكان بيت دولثينيا. لم يكن يسـمع في القرية غير نباح الكلاب ومواء القطط.

- عزيزي سانشـو- قـال دون كيخوته- هيا قدنـي إلى قصر دولثينيا؛ لعلها تكون مستيقظة.
- فأجابه سانشو إلى أيّ قصر تريدني أن أقتادك إذا كان البيت الذي رأيته صغيراً جدّاً؟
- فأجابـه دون كيخوتـه لا بـدَّ أنها كانت فـي غرفة من غرف قصرها.

- سـيّدي – قال سانشـو إذا كنت حضرتك ترغب أن تسمّي بيتهـا الصغير قصـراً، فهل هذا هو الوقت المناسـب لنجد فيه باباً مفتوحاً، أو لننادي أحداً كي يفتح لنا الباب؟
- لنجـد أولاً القصـر – قال دون كيخوته – ثم سـأخبرك ماذا سـنفعل. ولكـن انظـر جيّـداً يا سانشـو لعـلّ تلـك الكتلة الكبيرة التي توجد هناك هي قصر دولثينيا.
- فأجابـه سانشـو إذاً قدنا أنت يا سـيدي، فعندمـا أراه بعيني وألمسه بيدي سأصدّق ذلك.

قاد دون كيخوته سانشو وما إن مشيا قليلاً حتى وصلا مكان الكتلة الكبيرة وإذ بها برجٌ كبيرٌ، فتبيَّن لهما أنَّ البناء ليس قصراً وإنّمـا كنيسـة القرية. فقـال دون كيخوته لسانشـو: "لقـد لقينا الكنيسة"، فأجابه سانشو:

- هـذا مـا أراه، والحمد الله أنّنـا لن نر قبرنا أيضـاً لأنه ليس من الجيّد أن نمشـي بين المقابر في هذه الساعة المتأخرة، كما أنني قلت لحضرتك إنَّ منزل السيدة دولثينيا يوجد في حارة مغلقة.
- قبَّحك الله أيّها المغفل – قال دون كيخوته – متى رأيت أنَّ القصور تُبنى في حارات مغلقة؟

- فأجابه سانشــو لكلِّ بلد عاداته يا مولاي وربّما اعتادوا أن يبنـوا القصور في توبوسـو في حارات مغلقـة، لذلك دعنا نبحـث في الأزّقـة والحـارات فلعلنا نجد هـذا القصر في زاوية من الزاويا.
- تكلّـم باحتـرام عن سـيّدتي دولثينيا يا سانشـو ودعنا ننهي هذا الجدال بسلام قال دون كيخوته.

وما زال الاثنان يتناقشـان حتى أبصرا شخصاً قادماً من بعيد استيقظ باكراً من أجل الذهاب إلى عمله، فسأله دون كيخوته:

- هـل يمكـن أن تقـول لي يـا صديقـي العزيز أيـن هو قصر السيدة دولثينيا ديل توبوسو؟
- فأجابه الفلاح: سيدي أنا لست من هذا المكان ولم يمض علـى إقامتي هنا وقتٌ طويـلٌ. لكن هناك بيت الكاهن ولا بـدَّ أنّه يعـرف هذه الأميـرة لأنه يملـك قائمة بأسـماء كل سـكان القريـة؛ غيـر أنني أشـكّ بوجـود أميـرات في هذه القريـة، ولكن هناك سـيدات كبيـرات وكلّ واحـدة منهن تعتبر نفسها أميرة.

- فأجابه دون كيخوته لا شكّ أنّها واحدة من بينهن.
- ربما – أجابه الفلاح– والآن وداعاً فقد شارف الفجر على البزوغ.

كان سانشو قلقاً جداً على سيّده فقال له:

- مولاي لقد اقترب النّهار على الطلوع وليس من المناسب أن نكون في الشّارع. الأفضل أن نخرج من القرية وتختبئ حضرتك في غابة ريثما أبحث أنا في كل القرية عن منزل أو قصر سيّدتي. وعندما أجده أخبرك بالأمر.
- فقال له دون كيخوته: لقد قلت كلاماً جيّداً يا سانشو وأوافقك على نصيحتك هذه. هيّا فلنذهب إلى الغابة ثم تعود أنت للبحث عنها.

كان سانشو يرغب كثيراً أن يخرج مولاه من القرية كي لا يكتشف كذبته عندما كان في الجبل. وعلى بعد مسافة قصيرة من القرية كانت هناك غابة سارعا في الذّهاب إليها، وهناك بقي دون كيخوته ينتظر سانشو الذي عاد إلى القرية ليتحدّث مع دولثينيا.

الفصل السابع

سانشو يتمكن من سحر دولثينيا

كان دون كيخوته قد أمر سانشـو أن لا يعود ويمثل أمامه إلا بعد أن يتكلم مع سيدته ويطلب منها أن تسمح لفارسها الأسير أن يأتـي لزيارتها، وأن تباركه حتّى يتمكـن بعد ذلك من القيام بمغامراته الخطيرة.

وما إن ترك سانشـو سيده وخـرج من الغابة حتّـى نزل عن حماره وجلس عند جذع شجرة وراح يكلّم نفسه:

- والآن إلـى أين ستذهب سعادتك يـا سانشـو؟ بحثاً عن أميـرة. وهـل تعرف أيـن منزلها؟ سـيّدي يقول إنـه قصر. وهـل رأيته من قبل؟ لا أنا ولا سـيدي لم نـره من قبل. إنّ هـذا معناه أنَّ البحث عـن دولثينيا ديل توبوسـو هو بمثابة البحـث عن إبرة في كومة من القـش. ولكن لكلّ داء دواء وبما أنّ سيدي مجنون العقل وأنا لست أقلّ منه جنوناً فلن

يكـون من الصّعـب أن أجعله يعتقـد أنَّ أول فلّاحة ألقاها هـي السـيدة دولثينيا. وإن لم يشـأ أن يصدِّق، أقسـمت له بهـذا. وهـو في نهاية الأمر سـيعتقد أنَّ سـاحراً مـا قد غيّر شكلها ليسبِّب له الآلام.

هـدّأت هـذه الفكرة من بال سانشـو وقـرَّر أن يقضـي وقته هناك حتَّى الظّهيرة لكي يعتقد دون كيخوته أنّه استغرق الوقت الكافـي للوصـول إلى توبوسـو. وما إن نهض سانشـو ليركب حمـاره حتّى أبصر ثلاث فلّاحـات يركبن على حميرٍ، فما كان من سانشـو حين أبصرهن إلّا أن أسـرع إلى مـولاه ولمّا وصل إليه قال له:

- مـولاي مـا عليـك إلّا أن تغـادر الغابـة حتّى ترى السـيدة دولثينيـا ديـل توبوسـو قد أتـت لزيارتك برفقـة اثنتين من صديقاتها.
- ما أعظمك يا الله! ماذا تقول يا سانشو؟ حذار من خداعي وإفراحي بسرورٍ زائف.
- فأجابـه سانشـو: وماذا سأسـتفيد من خداعك يا سـيدي؟ هيا تعال لرؤية الأميرة، عشـيقتكم، مرتدية ما يليق بها. إنَّ

وصيفتيها ترتديان الذهب والماس؛ وشعورهنّ تبدو كأنّها أشعّة الشمس، وخصوصاً سيّدتي دولثينيا.

- هيا بنا يا سانشو- أجابه دون كيخوته- ومكافأة لك على هذه الأنباء الرائعة أعدك بأفضل غنيمة أكسبها في أول مغامرة، فإن لم يكفك هذا، فسأعطيك الأمهار التي ستلدها أحصنتي الثلاثة.
- فقال سانشو سأكتفي بالأمهار، لأنني لست متأكّداً من غنائم مغامراتك.

وما إن خرجا من الغابة حتى أبصرا الفلّاحات الثلاث. راح دون كيخوته ينظر إلى طريق توبوسو ولكنّه لم يجد إلا الفلاحات الثلاث فاضطرب وسأل سانشو إن كان قد ترك السيّدات خارج المدينة، فأجابه سانشو:

- خارج المدينة؟ أين عيناك يا سيدي ألا تراهن قادمات يلمعن كمثل الشمس؟
- فأجابه دون كيخوته ولكنّني لا أرى إلا ثلاث فلاحات يمتطين ثلاثة حميرٍ.
- يا إلهي أنقذني من الشيطان- صاح سانشو- هل يصحّ أن ترى ثلاثة أحصنة بيضاء كالثّلج تبدو لك حميراً؟

- فأجابه دون كيخوته إنّني واثق أنّها ثلاثة حمير كما واثق من اسمي دون كيخوته دي لا منشا ومن اسمك سانشو بانثا.
- اسـكت يا مولاي، لا تقـل مثل هذا الـكلام وافتح عينيك جيداً وتعال معي لنرى سيّدة أفكارك. قال له سانشو.

مـا إن قال سانشـو هـذا حتّى اقتـرب لاسـتقبال الفلاحات الثلاث فما كان منه إلّا أن جثا على ركبته وقال:

- يا أميرة، وملكة ودوقـة الجمال، أتمنّى أن توافق حضرتك علـى مقابلة عبدك الفارس الأسـير، الـذي صار مثل تمثال مـن الرّخـام عندمـا حضـر أمـام فخامتـك. أنا هـو خادمه سانشو بانثا، وهو الفارس الجوال دون كيخوته دي لا منشا الملقّب أيضاً فارس الوجه الحزين.

كان دون كيخوته هو الآخر قد جثا على ركبتيه بجوار سانشو وراح يحدّق بعينين مفتوحتين بتلك الّتي أخذ سانشو يقول عنها ملكة وسـيدة؛ غير أنّه لم يكن يرى إلا فلّاحة مسـتديرة الوجه، فطسـاء الأنف، ولكنه لم يجرؤ على النطـق بكلمة واحدة. أما الفلاحات فقد دهشـن عندما شـاهدن هذين الرجلين الغريبّين راكعين أمامهن، فما كان من واحدة منهنّ إلا أن صاحت:

- ابتعد عن طريقنا في الحال، ودعنا نمر، فنحن مستعجلات.
- آه يا أميرة توبوسو- أجاب سانشو- لماذا لا يتأثر قلبك الرحيم برؤية زهرة الفروسية راكعاً أمامك؟
- فقالت واحدة منهم: انظر كيف يسخر هذان السيدان من الفلّاحات كما لو أننا لا نستطيع أن نسخر منكما! تابعا طريقكما، ودعانا نسير في طريقنا.
- فقال دون كيخوته: انهض يا سانشو فها أنا أرى الحظ يستولي على كل الطرق التي يمكن أن تأتي منها السعادة. وأنتِ أيّها الدواء الحزين لقلبي الذي يعبدك، فما دام الساحر اللعين يطاردني ويضع الغشاوة على عيوني لكي أرى جمالك يتحوّل إلى مظهر فلّاحة مسكينة، اعطفي عليَّ وانظري إليَّ نظرة عشق تليق بهذه الروح التي تعبدك.
- فقالت الفلاحة: يا جدّي! ها أنا أسمع هذه التّرهات مرةً أخرى! ابتعد عن طريقي ودعنا نمر، وسنشكر لكما هذا.

ابتعد سانشو وتركها تمرُّ وكان سعيداً للطريقة التي مشت بها خطّته. ولكن لم يكد حمار الفلّاحة، التي تصنّع سانشو أنها دولثينيا، أن مشى قليلاً حتّى راح يرفس وأسقط السيدة دولثينيا



أرضاً. فسـارع دون كيخوتـه لإنهاضها وأراد أن يسـاعدها في الركوب على الحمار ولكنها قفزت بمفردها وركبت الحمار.

- يا إلهي – صاح سانشـو مسـتغرباً– إن سـيدتنا رشيقة أكثر مـن الطائر، وتسـتطيع أن تعلّم أحسـن الفرسـان الركوب على الحصان.

فالتفت دون كيخوته إلى سانشو وقال له:

- ما رأيك بهذه المعاملة السّـيئة التي يعاملني إيّاها السّـحرة يا سانشـو؟ انظر إلى أيّ حدّ وصل شـرهم وحقدهم، لقد وصل إلى حد أنّهم حرموني سعادة رؤية سيدتي كما هي. إضافـة إلى ذلك يا سانشـو فإنّ هـؤلاء الخونة لـم يكتفوا بتغييرها فقط بل حوّلوها إلى صورة بشـعة على غرار تلك الفلاحـة وانتزعـوا منها ما يميّزهـا كالأميـرات النبيلات، وعلاوة على ذلك فإنني حين اقتربت منها لأساعدها على الركوب، انبعثت منها رائحة ثومٍ قوية جداً.

وأخيراً ركبا دابتيهما وأخذا طريق سرقسطة.

فارس الغابة

وبينما كان دون كيخوته وسانشو يستريحان، وقد أكلا من الزاد الذي أحضراه معهما شعرا بحاجة إلى النّوم، سارع سانشو إلى النّوم، أما دون كيخوته فلم يكد يغلق عينيه حتّى أيقظه صوت ضجّة قادم من الخلف فراح ينظر حوله ويراقب دون أن يعرف مصدر الصّوت إلى أن أبصر أخيراً رجلين يركبان حصانين وكان أحدهما يقول للآخر:

- انزل يا صاحبي، فكما يبدو لي إنّ هذا المكان غنيٌّ بالعشب وبالصمت والعزلة المناسبين لأفكاري الغرامية.

وما إن انتهى من كلامه حتى جلس على الأرض، فسمع دون كيخوته صوت أسلحة واعتقد أنّه فارس جوّال، فاقترب من سانشو وقال له بصوت منخفض:

- لدينا مغامرة يا سانشو.

- فأجابه سانشو، فليجعلها الله جيدة. أين هي يا سيّدي هذه السيّدة المغامرة؟

- أين يا سانشو؟ أدر عينيك وانظر هناك إلى ذلك الفارس الجوال الممدّد على الأرض. يبدو أنّه حزين لأنّه نزل عن حصانه وهو فاقد الأمل. ولكن استمع إليه يبدو أنّه سيقول شيئاً:

- آه يـا أجمـل النسـاء وأكثرهن جحـوداً، آه يا كاسـيلدا دي بانداليـا، أمن الممكن أن تتركي عبدك الأسـير يتعذب في ذهـابٍ وإيـابٍ دائم معرضاً نفسـه للصّعوبـات وللأعمال الشّـاقّةً؟ ألا يكفي أنني أرغمت جميع فرسان نافارا، ليون وقشـتالة، وأخيراً جميع فرسـان المنشـا، علـى الاعتراف أنك أجمل أميرات الأرض؟

- أما هذا فلا- صاح دون كيخوته- أنا من إقليم المنشـا ولم أعترف أبداً بذلك، ولن أعترف بشيء من هذا القبيل يسيء إلى جمال سـيدتي. ألا ترى يا سانشـو، إن هذا الشـخص يقول حماقات.

سـمع فـارس الغابة صـوت دون كيخوته وهـو يتحدث مع سانشو، فنهض على قدميه وقال:

- من هناك؟ صاح بصوت قوي- أحدٌ بائس أم سعيد؟
- نحن بائسون- أجاب دون كيخوته.
- فاظهر إذاً وسترى الحزن نفسه مجسّداً في شخص، أجابه فارس الغابة.

عندما سمع دون كيخوته هذا الجواب الحنون، اقترب مع سانشو من فارس الغابة فقام فارس الغابة باحتضان دون كيخوته وقال:

- اجلس هنا يا سيدي فلقد تأكدت أنك فارس جوال بمجرد وجودك في هذه العزلة حيث يوجد فقط الفرسان الجوالون.
- فأجابه دون كيخوته، نعم أنا فارس جوال أمارس المهنة التي تذكر، وعلى الرغم من أنَّ أحزاني وآلامي كبيرة إلا أنني أتأثّر أيضاً بآلام الآخرين والتي سبّبها من دون أدنى شك الحب الذي تشعره لسيدتك الجميلة الجاحدة التي ذكرتها في شكواك.
- هل أنت عاشقٌ؟ سأله فارس الغابة.
- فأجابه دون كيخوته: نعم مغرمٌ؛ على الرغم من أن الآلام التي تنتج عن الأفكار الطّيبة يجب أن تكون نعماً لا نقماً.

- فأجابـه فارس الغابة: معك حق فيما تقول لو أن ازدراءهم لنا لا يضيع العقل، بحيث يبدو وكأنّه انتقام.
- لم يسبق لي أن رُفضت من قبل سيدتي، قال دون كيخوته.
- فقاطعـه سانشـو قائلاً: نعم يـا مولاي، لأن سـيدتي لطيفة ورقيقة وحسنة التعامل مع الآخرين.
- هل هذا خادمك؟ سأل فارس الغابة دون كيخوته.
- نعم إنّه هو، أجابه دون كيخوته.
- لم يسـبق لي أن رأيـت - قال فارس الغابـة- خادماً يتجرّأ علـى التكلّـم في حضرة سـيده؛ انظر إلـى خادمي، فهو لا يتجرأ على فتح فمه عندما أتحدّث.

في هذه الأثناء أمسك خادم فارس الغابة بسانشو من ذراعه وقال له:

- فلنذهب من هنا، ولنترك أسـيادنا يتحدّثون عن مغامراتهم وقصص حبّهم فقد يمرّ المساء ولا ينتهيا من ذلك.

الفصل التاسع

في تلاوة قصة فارس الغابة الملقب أيضاً فارس المرايا

في أثناء ذلك كان دون كيخوته وفارس الغابة يتابعان حديثهما:

- أريدك أن تعرف- قال فارس الغابة- أنّ قدري حملني على أن أحب سيدتي التي لا يوجد لها مثيل أبداً، وهي كاسيلدا دي باندالياً، التي لا تتوقّف تطلب مني القيام بمغامرات خطرة لكي أرى بعد ذلك رغباتي تتحقق. حتى إنني، رفعت وفقا لرغبتها وطلبها أربعة حجارة ضخمة جداً، ولكن حتى الآن مازالت آمالي بها ميّتة. وأخيراً طلبت مني أن أجوب أراضي إسبانيا كلّها وأن أرغم جميع فرسانها الجوالين على الاعتراف أنها أجمل أميرة، وأنني أنا أقوى فارس جوال في إسبانيا. وهكذا جلت حتى الآن

معظم أراضي إسبانيا وهزمت جميع الفرسان الذين قالوا غير ذلك. غير أن أكثر ما يثير فخري هو هزيمة الفارس الشهير دون كيخوته دي لا منشا وإرغامه على الاعتراف أن سيدتي كاسيلدا أجمل من سيدته دولثينيا، وكوني هزمته فهذا يعني أن شهرته ومجده وبطولاته صارت من أعمالي.

كان دون كيخوته معجباً بما يقوله غير أنه لم يخبره أنه يكذب، فما كان منه إلا أن قال له:

- لا أنكر أن فخامتك قد هزمت عدداً كبيراً من فرسان إسبانيا الجوالين، ولكنني أشك أن تكون قد هزمت دون كيخوته. ربما كان شخصاً يشبهه مع أنهم قليلون جداً أولئك الذين يشبهونه.
- كيف لم أهزمه؟ قال فارس الغابة- أنا الملقب بفارس المرايا تعاركت مع دون كيخوته وهزمته. إنه رجل طويل القامة، نحيل الجسم والوجه، مدبب الأنف، يلقب أيضاً بفارس الوجه الحزين، ولديه خادمٌ يدعى سانشو بانثا وحصانٌ يسمى روثينانته وعشيقته اسمها دولثينيا ديل

توبوسو. إذا كانت كل هذه العلامات غير كافية فها هو سلاحي إلى جانبي لأرغم كل من ينكر ذلك بالاعتراف أنني هزمته.

- على رسلك يا فارس المرايا- قال له دون كيخوته- واستمع إلى ما أريد قوله. إن دون كيخوته الذي تتكلّم عنه هو من أعزّ أصدقائي وأعرفه حقّ المعرفة، ولما كانت العلامات التي ذكرتها عنه صحيحة ودقيقة لا أستطيع أن أشكّ أنه هو الذي انتصرت عليه. غير أنني، من ناحية أخرى، لا أستطيع أن أصدق أنك هزمته إلا بحالة أن يكون أحد أعدائه السّحرة قد سرق هيئته لكي يجعل الناس تعتقد أنَّه هُزم وبذلك يسلبه سمعته وشهرته وبطولاته. ولكي أؤكد لك ذلك أستطيع القول إن هؤلاء السحرة قد حولوا أيضا صورة عشيقته دولثينيا إلى فلاحة فقيرة، وبالطريقة نفسها أيضاً أخمن أنهم حوّلوا دون كيخوته وبذلك استطعت أن تهزمه. وإن لم يكف ما قلته لك فها هو دون كيخوته الحقيقي نفسه أمامك يدافع عن نفسه راجلاً أو راكباً على حصانه أو كما تشاء.

وما إن قال دون كيخوته هذا حتّى هبَّ واقفاً، وسلّ سيفه.

- فقال فارس الغابة: الذي استطاع أن يهزم دون كيخوته مسحوراً، يستطيع أن يهزمه الآن. ولما كان من غير اللّائق أن يتعارك الفرسان في المساء، فلننتظر حتى الصباح لكي تبصر الشمس أعمالنا. ويكون شرط النزال أن يكون الخاسر تحت رحمة المنتصر فيفعل به ويأمره بما يشاء.
- فقال دون كيخوته: أنا موافق على هذا الشرط.

وكان سانشو وخادم فارس الغابة في تلك الأثناء يسمعان حوار سيديهما فقال حامل سلاح فارس الغابة لسانشو:

- عليك أن تعرف يا أخي أنه وبينما يتقاتل سيدانا، ينبغي أن نتعارك نحن أيضاً، فهكذا جرت العادة في إقليم الأندلس.
- فأجابه سانشو: لم أسمع من قبل سيدي يقول مثل هذا الكلام، فهو يعرف قوانين الفروسية الجوالة كلها. إضافة إلى ذلك فأنا لست غاضباً من حضرتك ولا أشعر بالبغض تجاهك.
- فقال له الخادم: لدي علاجٌ لهذا وهو أن اقترب منك وأضربك ثلاث أو أربع ضربات على رأسك لكي أثير غضبك.

- فأجابه سانشـو: أما أنا فلديٌّ علاجٌ أفضل وهو أن أضربك بالعصـا علـى رأسـك حتـى يغمـى عليـك وبذلـك ينـام الغضـب. مع أنّني أعتقـد أنه من الأفضـل أن نترك غضبنا نائماً، وليبارك الله السّلام وليلعن العراك.

ومـع حلول النهار اسـتطاع كل واحد منهمـا أن يرى الآخر بوضـوح. وكان أوّل ما أثار انتباه سانشـو هو أنف خادم فارس الغابـة الـذي كان كبيراً جداً إلى درجة أنه شـكّل ظلّاً لجسـمه كلـه. كان مثل حبّـة الباذنجانة مليئـاً بالبذور. فقرّر سانشـو أن يدع نفسه يتلقّى مائتي ضربة كي لا يوقظ غضب ذلك الوحش الذي كان أمامه.

أمـا دون كيخوتـه فراح ينظـر من بعيد إلى غريمـه ولكنه لم يستطع أن يميّز وجهه لأنّه قد لبس لباس المعركة فقال له دون كيخوته:

- لنركـب أحصنتنـا إذاً، ولنـر إن كان هـذا هـو دون كيخوته الذي هزمته.
- فأجابه فارس المرايا: إنك تشبهه كما تشبه البيضةُ البيضةَ،

ولكنـك ما دمـت تقول إنك مسـحور فلا أسـتطيع الجزم بأنك هو أم لا.

- فأجابـه دون كيخوته: هـذا يكفي لأدرك خطـأك. ولإزالة الشّـكّ نهائيّاً، هيا فلنقرِّب أحصنتنـا من بعضها وبعد قليلٍ سأرى وجهك وسترى أنت أنّني لست دون كيخوته الذي هزمت.

ولم تكد المعركة تبدأ حتّى قال فارس المرايا:

- تذكّر جيداً شرط المعركة الذي يقضي بأن يخضع المهزوم للمنتصر في كلّ ما يطلبه منه.
- أعرف هـذا جيداً- أجابه دون كيخوته- بشـرط ألّا يخرج عن حدود نظام الفروسيّة.

وفـي تلك الأثنـاء انتبه دون كيخوته إلـى غرابة أنف الخادم فدُهش مثل سانشو واعتقد أنّ هذا الشخص عجيبة من عجائب المخلوقـات. أما سانشـو فقد طلب من سـيّده أن يسـاعده في الصّعـود علـى شـجرة البلّوط كـي يشـاهد اللّقاء الباسـل بين الفارسين.

أمـا فارس الغابة فقد ظنّ في أثنـاء هذا أنّ دون كيخوته كان مستعدّاً، فركب حصانه وهجم على دون كيخوته ولكنّه عندما شـاهده يتكلّم مع سانشو، شـدّ لجام حصانه وأوقفه بطريقة لم يعد يسـتطيع الحراك بعدها. أمـا دون كيخوته عندما رأى ذلك ظـنَّ أنَّ فارس الغابة يهاجمـه، فما كان منه إلّا أن دفع روثينانته إلى حيث كان فارس الغابة وهاجمه وأوقعه أرضاً.

نـزل دون كيخوته بعد ذلك عـن حصانه وراح ليخلع خوذة فـارس الغابـة ليـرى إن كان حيّـاً أو ميّتاً....فـرأى، وأيُّ منظر رأى أمـام عينيه! لقد رأى وجه وشـكل وهيئة صاحب الإجازة سانسون كرسكو فدهش عندئذٍ وقال:

- تعال يا سانشـو وانظر شـيئاً لا يمكنك أن تراه ولا تصدّقه! انظـر يا بني ما يمكن أن يفعل السـحر، انظر ماذا يمكن أن يفعل السَّحرة!

فتطلع سانشـو إليـه ورأى وجـه صاحب الإجـازة، فدهش وقال لسيده:

- سيدي، مهما يكن من أمر، أعتقد أنه ينبغي أن تغرز سيفك



في فم هذا الذي يشبه صاحب الإجازة كرسكو، ولعلك بذلك تقتل أحداً من أعدائك السحرة.

- معك حقّ فيما تقول يا سانشو فبهذا سينقص عددهم واحداً. قال دون كيخوته.

وأراد دون كيخوته أن ينفذ نصيحة سانشو، وإذ به يرى خادم فارس الغابة يركض باتجاهه وقد خلع أنفه الذي جعله قبيحاً جداً، وكان يصرخ بصوتٍ عالٍ:

- انتبه يا سيدي دون كيخوته إلى ما تفعل، إنَّ من تراه تحت قدميك هو صديقك صاحب الإجازة سانسون كرسكو وأنا هو خادمه وحامل أسلحته.
- فسأله سانشو: وأنفك، أين هو؟
- فأجابه الخادم: إنه هنا في الحقيبة.

وسارع الخادم إلى إخراج الأنف المزيّف فتفحّصه سانشو ونظر أخيراً إلى وجهه وقال:

- يا للقدّيسة مريم! أليس هذا جاري تومي ثيثيال ؟
- نعم أنا هو- أجاب الخادم المزيف- أنا هو تومي ثيثيال وسأروي لك الأكاذيب والحيل التي قادتني إلى هنا.

أتوسّل إليك ألّا تسيء معاملة فارس المرايا، فهو من دون أدنى شك، المسكين صاحب الإجازة سانسون كرسكو.

والتفت دون كيخوته في تلك الأثناء إلى فارس المرايا واضعاً رأس سيفه على وجهه وقال له:

- مَيِّتٌ أنت أيها الفارس إن لم تعترف أنَّ سيّدتي التي لا مثيل لها دولثينيا ديل توبوسو تفوق بجمالها سيدتك كاسيلدا وأنَّ الفارس الذي هزمته لم يكن دون كيخوته دي لا منشا وإنّما فارس يشبهه.
- أعترف وأقرّ بكلّ ما تريده يا سيدي- أجاب الفارس المهزوم.

وهكذا ساعده دون كيخوته على النُّهوض، أما سانشو فراح يحدِّق طوال الوقت ويسأل حامل السِّلاح أشياءً، أشارت أجوبتها إلى أنّه بالفعل جاره تومي ثيثيال، لكن ما سمعه من سيده دون كيخوته عن السّحر والسَّحرة جعله يشك في ما يراه أمام عينيه. وأخيراً بقي دون كيخوته وسانشو على خداعهما، أما فارس المرايا وخادمه فذهبا لمداواة الجراح. وهكذا تابع دون كيخوته وسانشو طريقهما إلى سرقسطة.



الفصل العاشر

وفيه يروى خداع فارس المرايا وخادمه

تقول القصة إنَّ صاحب الإجازة كرسكو، عندما نصح دون كيخوته بخروجه الثّالث، كان قد رتّب مع قسّ القرية وحلاقها قصّة فارس المرايا لكي يرغم دون كيخوته أن يعود إلى منزله بعد أن يهزمه وفقاً لقوانين الفروسية.

قبل كرسكو بلعب هذا الدور، أمّا تومي ثيثيال فقبل أن يلعب دور الخادم وكان رجلاً مرحاً يحب التسلية. وهكذا بعد أن رتّبا كل شيء خرجا إلى طريق سرقسطة الذي قصده دون كيخوته وسانشو حتى وصلا إلى الغابة التي حدثت فيها المغامرة.

وعندما رأى تومي ثيثيال إخفاق رحلته مع صاحب الإجازة قال له:

- أعتقد يا سيدي كرسكو أنّنا نلنا ما نستحق: يعتقد المرء أحياناً بسهولة العمل ولكنه لا يلبث أن يكتشف صعوبة هذا العمل. إن دون كيخوته مجنون، أما نحن عقلاء، لقد خرج من هذه المغامرة سليماً يضحك، أما نحن فقد خرجنا حزينين محطّمين، قل لي الآن من هو أكثر جنوناً: المجنون الذي لا يستطيع تفادي مرضه أم من يتصنّع ذلك بإرادته؟
- فأجابه صاحب الإجازة: إن الفرق بين هذين المجنونين هو أن المجنون رغماً عنه سيبقى مجنوناً دائماً، أما المجنون الذي أراد ذلك فيستطيع التّوقّف عن ذلك متى شاء.
- هكذا إذاً يا سيدي، أجابه ثيثيال، فأنا كنت مجنوناً وفقاً لرغبتي، والآن أريد أن أتوقف عن ذلك وأن أعود إلى منزلي.
- حسناً، تستطيع أن تفعل هذا- أجابه كرسكو- أما أنا فهدفي أن أؤلم أضلاع دون كيخوته.

الفصل الحادي عشر

عرس كماتشو

وبينمـا كان دون كيخوتـه فـي طريقـه إلى سرقسـطة وإذ به يصـادف هو وسانشـو رجلين يعبـران الطريـق، فحيّاهما وقال واحدٌ منهم لدون كيخوته:

- يا سـيّدي إن لم يكن لديك وجهة تقصدها، وكنت تبحث عـن المغامرات، فتعال معنا وسـترى حضرتك عرسـاً من أجمل وأغنى الأعراس التي أُقيمت في إقليم المنشا كله.

فسألهم دون كيخوته إذا كان هذا العرس عرس أمير، فأجابه أحدهم:

- إنّـه ليس عرس أمير، بـل هو عرس فـلّاح وفلّاحة؛ ولكنه أغنـى رجل في هـذا الإقليـم؛ والعروس أجمـل فتاة رآها الرجـال. وسـيقام هـذا العـرس فـي مـرجٍ مجـاور لقريـة العـروس التي تدعى كتريـه الجميلة، أمـا العريس فيدعى كماتشو الغني.

وأخبـر الرجل دون كيخوته وسانشـو بقصّة شـاب من عمر كتريه وجارها في القرية يدعى باسـيليو، وباسـيليو هذا يعشـق كتريه منذ كانت صغيرة وهي أيضاً مغرمة به، وكل القرية تعرف بقصّة حبّهما. والحقّ أنّ باسـيليو رجل نشـيط، يعدو كالغزال، ويغنـي ويعزف ويفوز بـكلّ ألعـاب القريـة، إلا أنّ والد كتريه رفـض طلب باسـيليو بالـزواج من ابنته كونه فقيـر ووافق على زواجها من كماتشو الغني.

وهكذا قرّر دون كيخوته وسانشـو الذّهاب لحضور العرس لعـلَّ مغامـرةً تسـتحق الذكر تحـدث معهما. وكان أول شـيء شـاهده سانشـو عندمـا دخـل القرية هـو قطعة لحـم وضعت للشواء، وقد شاهد ستّ طناجر وضعت على النار وقد امتلأت باللحم، إضافة إلى كميات كبيرة من الأرانب والدجاج المعلّق على الأشـجار بانتظار طهيه. وراح سانشـو يعدّ أكثر من ستّين خابيـة نبيـذ، إضافة إلى أنواع الجبن والخبـز الأبيض. كان كل شيء متوفرٌ بكثرة وكان طعام العرس يكفي جيشاً بأكمله. كان سانشـو ينظر في كل شيء وقد أراد أن يتذوقه كله، فلم يستطع أن يقـاوم أكثر من ذلك، فاقترب من أحد الطهاة وطلب منه أن يأكل، فأجابه هذا:



- يـا أخي إن هـذا اليوم ليس يوماً للجـوع، والفضل في هذا يعود إلى الغني كماتشـو. ابحـث هنا إن كانت هناك ملعقة وتناول ما شئت من الطعام.

فـي تلك الأثناء كان دون كيخوته يراقب الناس وهي تتوافد إلـى العـرس وكان مـن بينهـا سـيدات جميـلات يركبـن على أحصنة ويهتفن:

- عاش كماتشو الغني وكتريه الجميلة، أجمل نساء الأرض!

عندما سمع دون كيخوته هذا أخذ يقول لنفسه:

- يبدو أن هؤلاء الناس لم يروا جمال دولثينيا ديل توبوسـو، فلو كانوا قد رأوها، لما مدحوا كتريه بهذا الشكل.

فـي تلك الأثناء وصل العروسـان وسـط الهتاف والسـعادة والرقـص والشـرب والأكل. وجـاءت الجميلـة كتريه وكانت شـاحبة الوجـه لأنهـا من دون شـك قضـت ليلة العـرس كلها مستيقظة تنتظر مجيء عرسها في الصباح.

وما إن بدأ العرس حتى ظهر باسيليو وهو يصرخ رامياً نفسه عند أقدام كتريه:

- تعرفين جيداً أيتها الجاحدة الجميل، أنك لا تستطيعين أن تتزوّجي طالما أنني على قيد الحياة وفقاً لوعدنا، وها أنا الآن سأقتل نفسي وفاءً لوعدنا.

قال هذا واستلَّ سكيناً وغز صدره، فسارع الجميع إلى إنقاذه، أما دون كيخوته فأخذه من ذراعيه وعرف أنه لا يزال حيّاً. اقترب الكاهن منه وأراد أن يأخذ اعترافه إلا أن باسيليو قال إنه لا يقوى على الاعتراف، لأنه متألّم ومتعب وإنه لن يعترف إلا إذا قبلت كتريه به عريساً. وافق دون كيخوته على هذا وقال إنّه مطلبٌ عادل ويجب تلبية طلب الجريح، وإنَّ السيد كماتشو يجب أن يوافق، وليس في الأمر ما يسيء إلى سمعته وشرفه. وهكذا اقتربت كتريه من باسيليو وأمسكت بيده، فنظر في عينيها وتوسل إليها أن تعطيه يدها بإرادتها دون أن تشعر أنها مجبرة على فعل ذلك.

- فقالت كتريه: ليس هناك شيء يجبرني، وها أنا أقدم لك يدي حرّةً وبمحض إرادتي وآخذ يدك بمحض إرادتك.
- نعم وأنا أعطيك يدي وأقبل بك زوجةً شرعيةً- قال باسيليو

- فقـال سانشـو: إنَّ هذا الرجـل يتكلم بطريقـة لا يبدو فيها مجروحاً.

وفـي تلـك الأثنـاء، وبينمـا كان الاثنـان يمسـكان يديهما، أعلنهمـا كاهن القرية متزوجين شـرعياً، ولـم يكد القس يقول هذا حتى نهض باسـيليو بصحّة جيدة وأخرج السكين المزيّف مـن صدره. وهكـذا أدرك الجميع أن الأمر حيلـة وقد خدعوا بهـا، أمـا العـروس فلم تُظهـر ذلك بل علـى العكـس التزمت بإعـلان الـزواج. وأراد أصدقاء كماتشـو أن يهاجموا باسـيليو ولكـن دون كيخوته تقـدّم على صهوة روثينانتـه وقال بصوتٍ عال:

- توقّفوا يا أسـيادي، ليس من العـدل أن ننتقم من الإهانات التـي يحملنا عليها الحب؛ وانتبهوا جيـداً إذ إن في الحب والحرب الشـيء نفسـه، ولما كان مسـموحاً فـي الحرب اسـتخدام الحيلة لهزيمة العـدو، فإنَّه بالإمكان اسـتخدام الكـذب من أجل الحصـول على المحبوبـة. إن كتريه من نصيـب باسـيليو؛ وباسـيليو مـن نصيـب كتريه، هـذه هي مشيئة السماء، وما أراده الله لا يستطيع أن يمنعه الإنسان،

ومن أراد أن يغيّر هذا فعليه أولا أن يهزم سيفي هذا.

ومـا إن قـال دون كيخوته هـذا حتى هدأ الجميـع واعتبروا دون كيخوته رجلاً شهماً. أما سانشو فكان هو الوحيد الحزين ذلك أنه أعتقد أن ليس بإمكانه الاستمرار في تناول طعام عرس كماتشـو. وهكذا حزيناً لحق بسـيده دون كيخوتـه ومجموعة باسيليو.

الفصل الثاني عشر

مغامرة الزورق المسحور

بعـد أن انتهيـا مـن مغامرتهمـا السـابقة سـار دون كيخوتـه وسانشـو طوال يومين ووصـلا إلى ضفاف نهـر الإبرو، وأراد دون كيخوته أن يتأمل صفاء النهر وغزارة مياهه. لقد استحضر هـذا المنظـر الجميـل إلـى ذكرياتـه آلاف الأفـكار الغراميـة، خصوصاً فيما يتعلق بسيّدة أفكاره دولثينيا ديل توبوسو.

وبينمـا كان دون كيخوتـه غارقـاً في أفـكاره، أبصـر زورقاً صغيـراً دون مجاذيف ولم يكن مربوطاً إلى الشـجرة التي كان إلـى جانبها. نظر دون كيخوتـه في كل الاتجاهات ولكنه لم ير أحداً، نزل عن صهوة جواده، وأمر سانشو أن ينزل عن حماره، فسأله سانشو لماذا أنزل عن حماري فأجابه دون كيخوته:

- عليك أن تعرف يا سانشو أنَّ هذا الزورق ينتظرني لأركب فيه، وأنقذ فارساً أو شخصاً هاماً لا بدَّ أنَّه في خطر.

- فأجابـه سانشـو: لا أعـرف إن كان بإمكانـي أن أسـمّي ما تقولـه جنونـاً، ولكن يا سـيدي، وكمـا يبدو لـي، فإن هذا الـزورق ليس زورق سـحرة، بل هـو زورق لأحد صيادي هذا النهر الذي يوجد فيه أشهى سمك في العالم.

ربط سانشو الدابتين وسـأل سيده ماذا سيفعل الآن، فأجابه دون كيخوته:

- ماذا، سنركب به وسنقطع الحبل الذي يربط هذا المركب.

ومـن وثبة واحـدة صعـد دون كيخوته وسانشـو وراءه إلى المركـب، وراح المركـب يبتعد رويـداً رويداً عـن الضفة، أما سانشـو فكانت فرائصه ترتعد من شـدة الخوف ولم يستطع أن ينسـى روثينانته وحماره اللّذين بقيا وحيدين. ولما كان يشـعر بهذا كله بدأ بالبكاء فقال له دون كيخوته:

- مِـمَّ تخاف أيهـا المخلوق الجبان؟ لمـاذا تبكي يا ضعيف القلب؟ من يلاحقك أو يطاردك؟ هل أنت عاري القدمين وسـط الجبال؟ ألسـت قاعداً في الزورق مثل الأمير تبحر عبره إلى البحر الذي سيصبّ فيه قريباً كوننا قطعنا ثمانمائة فرسخ؟

- فقال سانشـو أنا لا أصدق كلمة واحدة مما تقول، وكل ما أراه بعينـي أنّنـا لم نبتعد عـن ضفة النهر إلا خمسـة أمتار، وتصديقـاً لهـذا أرى روثينانتـه وحمـاري مربوطيـن كمـا تركناهما.

فـي أثناء هذا أبصر الاثنان طواحين ماء كبيرة جداً كانت في منتصف النهر، فما إن رآها دون كيخوته حتى قال:

- أترى يا سانشـو؟ هذه هـي المدينة أو القصـر الذي يوجد فيه الفارس المحتجز، أو الأميرة، أو الملكة التي تم إساءة معاملتها ولهذا فإنني هنا للمساعدة.
- فأجابه سانشو عن أي مدينة أو قصر تتحدث بحق الآلهة؟ ألا ترى أنها طواحين ماء تلك التي توجد في النهر؟
- اخرس يا سانشو– قال دون كيخوته– فعلى الرغم من أنها تبـدو طواحين مـاء، فإنها ليسـت كذلك، وكمـا قلت لك سابقاً إن السحر قادر على تغيير كل شيء.

راح الزورق بفعل التيار يسرع المسير، أما عمال الطواحين، عندمـا رأوا أن الزورق سـيدخل فـي الطاحونة الكبيـرة، قاموا بإخراج عصاة كبيرة لكي يوقفوا القارب. ولما كانت وجوههم

وثيابهم بيضاء، كانت أشكالهم غريبة جداً، فقال واحدٌ منهم:

- إلى أين أنتما ذاهبان أيها الشيطانين؟ هل تريدان الغرق أم تريدان أن تسحقّكما هذه الطواحين؟

- ألم أقل لك يا سانشو- قال دون كيخوته- إننا وصلنا إلى المكان الذي سأظهر فيه قوة ذراعي؟ انظر كم من الأوغاد الجبناء خرجوا للقائنا؟ انظر كم وحشاً خرج؟ سترون الآن أيها الأوغاد.

وهكذا نهض دون كيخوته على قدميه وراح يصيح بصوتٍ عال:

- أيها الأوغاد السفلة، هيا حرِّروا الشخص الذي حجزتموه في القلعة، فأنا هو الفارس دون كيخوته دي لا منشا الملقب فارس الأسود، الذي قاده القدر إلى هذه المغامرة السعيدة.

قال دون كيخوته هذا واستلَّ سيفه وراح يهدِّد عمال الطاحونة الذين لم يفهموا ما كان دون كيخوته يقوله، فراحوا يحاولون إيقاف الزورق بالعصي التي كانت معهم كي لا

يصطدم بالطاحونـة، وفعلاً تمكنوا من إيقـاف القارب، ولكن هـذا لم يتم إلا بعد أن سـقط دون كيخوته وسانشـو في الماء. كانت أيام دون كيخوته سـتنتهي لأن ثقل الأسـلحة كان يدفعه إلى أسفل الماء، ولكن عمال الطاحونة تمكنوا من إخراجه من الماء.

في تلـك الأثناء وصـل الصيادون الذين يملكـون القارب، وعندمـا رأوا القارب محطمـاً، طلبوا من دون كيخوته أن يدفع ثمـن القـارب، فأجابهـم دون كيخوتـه أنه سـيدفع بشـرط أن يحرِّروا الشخص المحتجز داخل القلعة.

- عن أي شـخص أو أية قلعة تتحدث؟ سـأله أحد العمال– هل تريد أن تختطف أحد عمال الطاحونة؟
- فـراح دون كيخوتـه يفكـر مع نفسـه: كفى! لا بـدَّ أن هذه المغامرة فيها سـاحران قويان، وأحدهما منع إرادة الآخر: واحدٌ منهما دفعني إلى السفينة، والآخر ألقى بي في الماء. إن هذا العالم قائم على أشياء متضادة، وأنا لا أستطيع أكثر من ذلك.

ثم رفع صوته ونظر إلى عامل الطاحونة وقال له:

- أصدقائي، يا من أنتم مسجونون في هذا السجن، اعذروني إن كنت لا أستطيع، لتعاسة حظي وحظكم، أن أحرركم من هذا السجن. إن هذه المغامرة قد قدّرت لفارس آخر غيري.

دفع سانشو رغماً عن أنفه المبلغ الذي اتّفقا عليه للصيادين. وكان الجميع مذهولين من هذين المخلوقين المختلفين عن سائر المخلوقات. وهكذا ترك دون كيخوته وسانشو الحاضرين وتابعا سيرهما.

وهكذا انتهت مغامرة الزورق المسحور.

الفصل الثالث عشر

لقاء دون كيخوته مع الدوق

عاد دون كيخوته وسانشو إلى دابتيهما وكانا حزينين غارقين في التفكير، فركبا وتابعا سيرهما. في اليوم التالي، عندما غادرا الغابة، شاهد دون كيخوته عدداً من الأشخاص فعرف أنهم صيّادون من لباسهم، فاقترب منهم وإذ به يرى سيدة فائقة الجمال تمتطي حصاناً أبيض، وترتدي فستاناً أخضر فقال لسانشو:

- اركض يا سانشو إلى تلك الأميرة وقل لها إنَّ فارس الأسود يقبّل يديك، ويأمل أن تسمحي له بتقبيل يديك، وخدمتك في كل ما تطلبينه. واحذر كل الحذر فيما تقول يا سانشو، وإيّاك أن تكثر من أمثالك.
- في البيت الغني سرعان ما يحضر الطعام- قال سانشو لدون كيخوته- وما أريد أن أقوله يا سيدي ليس هناك

حاجة لأن تقول لمثلي هذا، لأني أعرف كل شيء.

مضى سانشو مسـرعاً على حماره ووقف أمامها وجثا على ركبتيه وقال:

- سيدتي الجميلة، إن ذلك الفارس الذي ترينه يدعى فارس الأسـود، وأنـا هـو خادمـه وحامل سـلاحه سانشـو بانثا. إن سـيدي فارس الأسـود، والـذي كان يلقب نفسـه أيضاً فارس الوجه الحزين، قد أرسـلني لأطلب من عظمتك أن تسمحي له بخدمتك وخدمة جمالك.
- أحسنت أيها الخادم، لقد أوصلت رسالتك بالشكل الذي يليق- قالت السـيدة- انهض عن الأرض، إن خادم فارسٍ بحجم فـارس الوجه الحزيـن، الذي وصلت شـهرته إلى هنا، لا يليق به أن يجثو على ركبته. انهض وقل لسـيدك أن يأتي ليستريح في بيتنا أنا وزوجي الدوق.

ولم يكد سانشو ينهض حتى تابعت حديثها:

- قل لي أيها الخادم- أليس سيدك هو الفارس الذي طبعت أعماله في كتاب يدعى: الفارس النبيل دون كيخوته دي لا

منشا الذي يعشق السيدة دولثينيا ديل توبوسو.

- فأجابها سانشو: نعم يا سيدتي إنه هو بشحمه ولحمه، وأنا هو خادمه وحامل سلاحه سانشو بانثا الذي ظهر أيضاً في الكتاب، أنا هو إن لم يغيروا الكتاب.
- فقالت الدوقة: إن هذا يسرني كثيراً، اذهب إلى سيدك وقل لـه علـى الرحب والسـعة فـي أراضينا، فليس هناك شـيء يسعدنا أكثر من ذلك.

عاد سانشـو إلى سيده بجواب محترم، في أثناء ذلك راحت الدوقـة تخبـر زوجها الدوق بما جـرى، وكان الاثنـان قد قرأا الجـزء الأول مـن كتـاب دون كيخوتـه، وبذلـك كانـا يعرفان جنونه، فقررا أن يسـايراه في الأمر، وأن يعاملاه على أنه فارس جوال وأن يطيعاه في كل ما يقوله.

وصـل دون كيخوته إلى مكان الدوقة وعندما حاول النزول عن روثينانته سـقط أرضاً، ورمى باللوم في ذلك على سانشـو الذي لم يمسـك له حصانـه، وأراد دون كيخوته أن يجثو على ركبتيـه أمام الدوق والدوقة ولكن الدوق ذهب باتجاهه ومنعه من أن يجثو على ركبتيه وحضنه ثم قال له:

- سـيدي فارس الوجه الحزين، أنا مسـتاءٌ جداً من الحادث الأول الـذي تعرضـت لـه علـى هـذه الأرض ألا وهـو سقوطك على الأرض. إن إهمال الخادمين عادةً ما يسبب حوادث مؤسفة.

- فأجابـه دون كيخوتـه إن رؤيتكم، أيها الـدوق النبيل، هي أفضـل حـدث جرى معـي، ودائماً سـأكون فـي خدمتكم وخدمة سيدتي الدوقة فائقة الجمال والتواضع.

- مهـلاً، يا سـيدي دون كيخوتـه- أجابه الـدوق- فالمكان الذي تكون فيه السيدة دولثينيا ديل توبوسو لا يمكن الثناء فيه على جمال غير جمالها.

فأجاب سانشو قبل سيده قائلاً:

- في الحقيقة لا يمكن لأحد أن ينكر جمال سـيدتي دولثينيا ديل توبوسـو، لكن الأرنب يظهر حيث لا يتوقع[١]، وكثيراً مـا سـمعت أن الطبيعة هي مثـل الفنان الـذي يصنع أواني الفخـار، فـإذا صنع آنية جميلـة يسـتطيع أن يصنع المئات

(١) مثل إسباني يشير أن الأمور أحياناً تحدث في الأوقات التي لا نتوقعها. (المترجم).

منهـا، ولهـذا أقـول إن سـيدتي الدوقة لا تقـل جمالاً عن سيدتي دولثينيا.

- فالتفـت دون كيخوته تجاه الدوقة وقال: لـم يسـبق لفارس جوال أن كان لديه خادم ثرثار ومسلي مثل خادمي سانشو بانثا.

- فأجابـت الدوقـة: إن كان سانشـو مسـلياً فهـذا يزيـد مـن تقديري له، وهذا دليل حكمة وليس دليل غباء.

وأخيراً قال الدوق:

- هيـا بنـا يـا فـارس الأسـود، فـإن قصـري قريبٌ مـن هنا، وسنسـتقبلك الاسـتقبال الـذي يليـق بفخامتـك، وهو ما اعتدنا الدوقة وأنا أن نفعله مع جميع الفرسان الجوالين.

وهكذا اتّجه الجميع إلى القصر.

الفصل الرابع عشر

نقاش دون كيخوته مع رجل الدين

سبق الدوق والدوقة دون كيخوته وسانشو إلى القصر وذلك ليرتّبا الطريقة التي سيُستقبل بها دون كيخوته. وهكذا عندما وصل دون كيخوته استقبلته سيدتان جميلتان وضعتا على كتفه رداءاً أحمر بينما كان الخدم يصيحون بصوتٍ عالٍ:

- أهلا بزهرة وزبدة الفرسان الجوالين!

ومن هذا اليوم راح دون كيخوته يعتقد نفسه فارساً جوالاً حقيقياً، لا خيالياً، إذ إن الطريقة التي استُقبل بها تشبه تماماً ما قرأه في كتب الفروسية.

وبعد أن انتهت مراسم الاستقبال، دخل الجميع الصّالة الكبيرة في القصر لتناول الطعام. وكان بين الحاضرين على مائدة الطعام رجل دين يدير شؤون الدوق والدوقة، جلس الجميع وبينما كانوا يتناولون الطعام سألت الدوقة دون كيخوته

عن أحوال دولثينيا فأجابها دون كيخوته بعد تنهدٍ عميق:

- سيدتي لا نهاية لأحزاني أبداً. لقد هزمت العمالقة والمردة وأرسلتهم إليها، ولكن أين سيجدونها إذا كانت مسحورة ومتحولة إلى فلاحة بشعة؟
- لا أعرف- قال سانشو- ولكنها تبدو لي أجمل نساء الأرض.
- فسأله الدوق: وهل رأيتها أنت يا سانشو مسحورة؟
- فأجابه، وكيف لا؟ لقد كنت أول من رآها مسحورة.

رجل الدين الذي راح يسمع ما يقوله دون كيخوته وسانشو أدرك أنهما الشخصان نفسهما في القصة، وكان قد قرأ عن حماقتهما فقال للدوق:

- هل هذا دون كيخوته أم دون غبي، مهما يكن اسمه فإنه لا ينبغي أن يكون من الجنون بقدر ما يود سعادتك أن يكون.

ثم التفت رجل الدين إلى دون كيخوته وقال له:

- وأنت، من وضع في رأسك أنك فارس جوال وأنك هزمت مردة؟ عد إلى منزلك واهتم بأولادك، إن كان

لديك، واعتني بمالك وتوقف عن التجوال في هذا العالم مثيراً الضحك في نفوس من يعرفونك أو لا يعرفونك. أين وجدت فرسان جوالين؟ وهل سبق أن رأيت مردة عمالقة في إسبانيا، أو دولثينيات مسحورة؟

راح دون كيخوته يسمع بهدوء كل ما قاله رجل الدين، وعندما ما انتهى رجل الدين أجابه دون كيخوته بغضبٍ شديد:

- كنت أنتظر من حضرتك نصائح مفيدة لا توبيخات، إذ إن توبيخي بكل هذه الحدة هو خروج عن كل الحدود. كما أنني أعتقد أنه ليس من الخير أن تدعو المخطئ غبياً أو أحمقاً دون أن تعرف الخطيئة؟ فقل لي إذاً، أي جنونٍ لاحظته عليَّ يسمح لك بإهانتي وأمري بالعودة إلى بيتي وزوجتي وأولادي دون أن تعرف إن كانت لدي زوجة أو أولاد؟ أليس لديك عمل آخر تقوم به غير دخول بيوت الناس وإسداء النصائح لهم ومحاكمة الفرسان الجوالين وإعطائهم أوامر؟ وهل هي مغامرة غير مفيدة التجوال في هذا العالم بحثاً عن المشقات ليرتقي بها صاحب الخير إلى مرتبة الخلود؟ بعض الناس يسلك مسلك الطموح؛

والبعض الآخر يسـلك مسلك الخداع؛ أما أنا فقد اخترت طريق الفرسان الجوالين الضيق الذي تعلمت منه أن أدافع عن شـرفي لا عن مالـي. إن كل أعمالي لهـا هدف طيب: وهـي مسـاعدة كل محتاج. فإن كان من يسـعى وراء ذلك يسـتحق أن يسـمّى مجنونـاً أو أحمـق، فإنني أتـرك الأمر لسيدي الدوق وسيدتي الدوقة.

- رائع يا سـيدي- قال سانشو- أسـتحلفك بالله ألا تضيف كلمة أخرى على دفاعك.
- فقـال رجـل الدين: وهـل أنت سانشـو بانثا الـذي وعدك سيدك بحكم جزيرة؟
- فأجابـه سانشـو نعم أنا هو وأسـتحق حكم هـذه الجزيرة، فكما يقول المثل عاشـر الأخيار فتكون منهم؛ ومن يستند إلى شـجرة حسـنة ينعم بظل حسـن. وأنا أسـتند إلى سيد حسن، فلا هو تنقصه إمبراطوريات ولا أنا تنقصني جزر.
- فقال الدوق: حسـناً يا سانشو، سأمنحك باسم سيدك دون كيخوته، حكم جزيرة أملكها.

لم يصدق سانشو ما سمعه، وأسرع من فرحته ليقبل أقدام الدوق، وفي تلك الأثناء غضب رجل الدين ونهض قائلاً:

- يبدو يا سيدي أنك مجنون مثل هذين الخاطئين. وكيف لا يكونا مجنونين إذا كان العقلاء أنفسهم يمارسون الجنون! لِتَبقَ فخامتك معهما، فطالما هما معك في هذا المنزل سأذهب إلى منزلي.

وما إن أتم هذه الكلمات حتى غادر المكان، أما الدوق الذي لم يستطع أن يتمالك نفسه من الضحك قال:

- لقد أحسنت يا فارس الأسود بجوابك المقنع والمحترم هذا على رجل الدين، وإن كان قد بدا له إهانة، فإنّه ليس في جوابك ما يهين.

جلد سانشو

استمتع الدوق والدوقة جداً بمحادثة دون كيخوته وسانشو، ولما كانا قد قررا أن يتابعا المزح والسخرية على ضيفهما، حضّرا خطّة جديدة لذلك.

قضى الجميع يومهم في الغابة يصطادون، وكان ذلك وفقاً لما رتّب الدوق، ومع حلول المساء، سُمع صوت ضوضاء شديدة يرافقه صوت طبول وتصفيق وصوت أبواق كما لو أنهم في حرب.

وفجأة ظهر بين أشجار الغابة رجل يرتدي زي عفريت وهو ينفخ في بوق فقال بصوت عالٍ:

- أنا هو الشيطان، جئت أبحث عن دون كيخوته دي لا منشا. وإن هؤلاء الذين معي هم سحرة ومعهم السّيدة

التـي لا مثيل لها دولثينيا ديل توبوسـو، وقد رافقها عجوز حكيم، جـاء ليقول لدون كيخوته الطريقة التي بواسـطتها يستطيع رفع السحر عن سيدته.

- إن كنـت الشـيطان عـن حق لكنت قـد تعرّفـت على دون كيخوته دي لا منشا الذي هو أمامك- قال الدوق.

- فأجابه الشيطان: أقسم بحقّ الآلهة إنّي لم أشاهده.

- فقال سانشـو لا شـكَّ أن هذا الشـيطان هو رجل مسـيحي تقيّ وطيّب لأنه يقسـم بالله. حتى في الجحيم نفسه يوجد أناس طيبون.

فـي تلك الأثناء سـمع صـوت ضجـة مخيفة يقتـرب منهم أكثـر فأكثـر، وكان صوت عربـات وطبول ولمـا كان الليل قد اشـتدَّ ظلامـه خـاف الجميع أمـا سانشـو فقد غشـي عليه عند أقـدام الدوقة. وفـي تلك اللحظة ظهـرت عربـة يقودها ثيران ضخمة وكان فيها السّـاحر الحكيـم، ترافق مع هذا كله صوت موسيقا ناعمة مخيفة. كان هناك داخل العربة أيضاً سيدة مغطاة بالأبيـض وإلى جانبها يوجد رجل وقـور ذو لحية بيضاء وكان يلبس عباءة سوداء فقال بصوت عال ما إن خلع العباءة:

- أنـا هـو الحكيـم مرليـن، ولقـد وصلنـي صـوت الجميلة

دولثينيا ديل توبوسو وعرفت أنها مسحورة. وهكذا رحت أبحث في الكتب عن دواء لمرضها وها أنا أحضره. وأنت أيها الفارس الشـجاع دون كيخوته، يا نجمة إقليم المنشا، فلكي ترفع السحر عن دولثينيا فإنه من الضروري أن يجلد خادمك سانشو بانثا نفسه ثلاثة آلاف وثلاثمائة جلدة.

- فصـاح سانشـو آه يا إلهي لن أضرب نفسـي لا ثلاثة آلاف جلـدة ولا حتـى ثلاثـة، وإذا كان السـيد مرليـن لا يعرف طريقـة أخـرى نرفـع فيهـا السـحر عـن السـيدة دولثينيـا، فلتذهب مسحورة إلى القبر إذاً.

- فصاح دون كيخوته أنا سأجلدك يا سانشو ليس ثلاثة آلاف وثلاثمئة بل سـتة آلاف وستمئة جلدة بعد أن أربطك على شجرة.

- لا يمكنك فعل ذلك يا دون كيخوته- قال الحكيم الساحر مرليـن- لأن جلدات سانشـو يجب أن يقوم بها هو نفسـه عن إرادة وطواعية، وليس بالقوة.

- ولمـاذا ينبغي أن أكون أنا وليس سـيدي من يجلد نفسـه؟ سأل سانشو

فقال الدوق

- عزيـزي سانشـو إن لـم تفعل مـا طلبه منـك الحكيم، فلن أعطيـك حكـم الجزيرة. إذ إننـي لا أسـتطيع أن آمر رجلاً قاسـي القلـب لا يتأثّر لبكاء السـيدات والحكمـاء بحكم جزيرتـي ورعيتـي، فإمـا أن تُجلد أو أن تتخلـى عن حكم الجزيرة.
- هيا يا سانشـو الطيب - قالت الدوقة- كن شـاكراً لجميل سـيدك عليـك، والـذي يجـب أن نخدمـه كلنا لشـجاعته العظيمة.
- حسـناً موافـق على ذلـك- قال سانشـو- لكن بشـرط ألا يلزمنـي أحـد بوقت معين، وأن أجلد نفسـي كيفما شـئت ومتى شئت.

وهكذا بعد أن وافق سانشو وحدث كل هذا مع دون كيخوته وسانشـو، كانـت الشـمس قـد شـارفت علـى الشـروق، فعاد الجميـع إلى القلعة وكان الدوق والدوقة فرحين جداً وراضين عن هذه المغامرة وقد قررا متابعة السخرية والضحك من دون كيخوته وسانشو وكادا يموتان من الضحك.

الفصل السادس عشر

مغامرة كلافيلينيو

وبينما كان الجميع في الحديقة جاء رجل يرتدي زيّاً أسود وقال إنّه خادم الكونتيسة تريفالدي، والتي تلقب أيضاً بالسيّدة المتألمّة، والتي جاءت بحثاً عن الفارس الشجاع دون كيخوته دي لا منشا من مملكة "كنديا" لتحدثه عن آلامها.

الدوق الذي كان قد رتّب كلّ شيء مع الدوقة سمح للأميرة الملقبة بالسيدة المتألمة أن تدخل. ولما دخلت السيدة كانت في رفقتها اثنتي عشرة وصيفة تلبسن جميعهن حجاباً أسود على رأسهن. أما الكونتيسة تريفالدي فكانت تلبس فستاناً أخضر بأطراف ثلاثة.

راحت السيدة المتألمة تقصّ على دون كيخوتة آلامها وسوء طالعها، أخبرته أنها في مملكة كنديا أوكلت إليها مهمة رعاية ابنة الملكة مغنوثيا، وهي فتاة جميلة تلقّب باسم

أنطونو ماسيا. وشاء القدر أن أغرم بها فارس فاستغل جمال الفتاة ولطفها، وهكذا حملت منه، ولما كان عليهما الزواج، ماتت الملكة مغنوثيا غيظاً من هذا. ولم نكد ننتهي من مراسم الدفن حتى ظهر عند قبرها المارد مالبرونو، وهو يمتطي حصاناً خشبياً؛ ولما كان أخو الملكة مغنوثيا، أراد أن ينتقم لها، وكعقابٍ قام بتحوّيل السيدة الصغيرة إلى قردة من البرونز وحوّل الفارس إلى تمساح معدني وكتب عند أقدام التمثالين: "هذان العاشقان لن يستردا حالتهما إلا إذا جاء فارس المنشا وهزمني في مبارزة" وما إن قال هذا حتى عاقب السيدة المتألمة ووصيفاتها الاثنتي عشرة بأن جعل لهن لحىً.

وما إن انتهت من كلامها حتى خلعت هي ووصيفاتها الحجاب الأسود الذي يغطي وجوههن، ودُهش الجميع عندما رأوا لِحاهم، بعضها لونه أسود والآخر أحمر.

فقال دون كيخوته:

- لم يبق أمامي خيارٌ آخر، قولي لي يا سيدتي، كيف أستطيع أن أخدمك؟

- المشكلة– أجابت السيدة المتألمة– أن مملكة كنديا بعيدة ما يقارب خمسة آلاف فرسخ براً، ولكن إذا سافرنا جواً فالمسافة تصبح ثلاثة آلاف فرسخ. إضافة إلى ذلك فإن المارد مالبرنو قد قال لي إنّي إذا وجدت الفارس الذي سيحررني فإنه سيرسل لي حصاناً لا مثيل له. إنه حصانٌ خشبي يتحرك ويتوقف بوساطة مفتاح يحمله على جبينه ويمكن استخدامه للكبح، ويطير هذا الحصان في الهواء بسرعة خارقة فيخيل للمرء أن العفاريت تحمله. لقد صنع هذا الحصان الحكيم مرلين، الذي سافر في كل أركان الدنيا واليوم هو هنا، أما غداً فقد يكون في فرنسا أو في مكان أبعد.
- وكم شخصاً يستطيع أن يحمل هذا الحصان ؟ سألها سانشو
- فأجابت المتألمة اثنين، واحد على السرج والآخر خلفه. وعادةً ما يكون الفارس مع خادمه.
- وما اسمه؟ سأل سانشو
- اسمه كلافيلينيو، ومعناه الحصان "الخشبي الخفيف"

وهو اسـم يناسـبه تماماً لأنه مصنوع من الخشب، ويحمل في جبينه مفتاحاً وهو رشيق جداً.

- فقـال سانشـو كـم أود أن أراه، ولكـن مجـرد التفكير أنني سـأمتطيه هو أمرٌ مسـتحيل، فأنا بالكاد أسـتطيع أن أمتطي حماري فكيف بي أن أجلس في مؤخرة حصان خشبي!

- لا تقلقي سـيدة تريفالدي- قال لها دون كيخوته- فسانشو سينفذ ما آمره به.

وعندمـا حل المسـاء شـوهد أربعـة أشـخاص يدخلون في الحديقة يحملون معهم فرساً خشبياً فقال واحدٌ منهم:

- فليركـب هنا الفارس الشـجاع المغامر، فمـا عليك إلا أن تديـر المفتاح وسـيقوم الحصان بالطيران بكـم في الجو. ولكـن كي لا تشـعرا بالـدوار بسـبب السـرعة والارتفاع، عليكما ربط العينين إلى أن يصهل الحصان، فسيكون هذا علامة أن الرحلة قد انتهت.

أما السيدة المتألمة فعندما رأت الحصان قالت لدون كيخوته:

- هـذا هو الحصان أيهـا الفارس الشـجاع، وكل ما تحتاجه هو أن تمتطيه مع خادمك وستبدأ بذلك رحلتك السعيدة.

- فأجابها دون كيخوته هذا ما سأفعله يا سيدتي، فكم أنا متلهفٌ لرؤيتك مع وصيفاتك من دون لحية.

أما سانشو الذي راح يرفض الركوب مع دون كيخوته خوفاً من الطيران في الجو فقد قال له الدوق:

- عزيزي سانشو إن الجزيرة التي وعدتكم بحكمها تنتظر عودتك من هذه المغامرة، وعندما تعود سيستقبلك رعيتك كما يليق بالحاكم.

وهكذا صعد دون كيخوته وسانشو على الحصان الخشبي وقام الحاضرون بتغطية أعينهم وما أن لمس دون كيخوته مفتاح الحصان حتى صاح الجميع:

- فليرشدك الإله أيها الفارس المغوار! الله معك أيها الخادم الشجاع! إنكما الآن تطيران في الهواء وتبتعدان عالياً.

عندما سمع سانشو أصواتهم قال لسيده:

- سيدي، كيف يقولون إننا نطير عالياً جداً إذا كان بإمكاننا أن نسمع أصواتهم كما لو كانوا قربنا؟
- دعك من هذا الآن يا سانشو – أجابه دون كيخوته– فهذه

الأشـياء دائمـاً ما تحدث خارج العادة. ثـم لا أعرف لماذا تشعر بهذا الخوف فالريح في مؤخرتنا.

فأجابه سانشو:

- معـك حق ياسـيدي إذ إنني أشـعر بالريح من هـذه الجهة وكأن آلاف المنافيخ وجهت علينا.

وهـذا ما كان يحـدث في الواقع، إذ إن الدوق كان قد حضّر منافيـخ هواء كبيرة ووجهها إليهما، وعندما شـعر دون كيخوته بالهواء قال:

- لا شـكّ أننا وصلنـا إلى منطقة الهـواء الثانية، حيث توجد الثلوج. وإذا اسـتمرينا في الصعود عالياً سنصل إلى منطقة النـار، غيـر أنني لا أعرف كيف أضبط هـذا المفتاح كي لا نصل إلى مكان نحترق فيه.

في هـذه اللحظة تـم وضع مشـاعل نارية قريبـة منهما فلما أحس سانشو بالحرارة صاح:

- أقطـع ذراعي إن لـم نصل إلى منطقة النار، لقد احترق جزء من لحيتي وأنا على وشك أن أخلع الرباط عن عيني لأرى ما يحدث.

- إيّاك أن تفعل هذا يا سانشـو- أجابـه دون كيخوته- فربما كنا نصعد لكي نصل إلى مملكة كنديا.

كان الدوق والدوقة وجميع الحاضرين يستمعون إلى حوار دون كيخوته وسانشـو وقد اسـتمتع الجميع كثيـراً وضحكوا، ومـن أجـل وضع حد لهـذه المغامـرة العجيبة، قاموا بإشـعال ذيل الحصان الخشبي الذي كان ممتلئاً بالمفرقعات والألعاب النارية، فانفجر في الهواء وسقط دون كيخوته وسانشو أرضاً.

ودهـش دون كيخوتـه وسانشـو عندمـا وجدا نفسـيهما في الحديقة فالتفتا حولهما وشاهدا رمحاً مغروزاً في الأرض وقد عُلِّقت عليه لافتة كتب عليها بأحرف كبيرة:

"لقد أنجز الفارس الشهير المغوار دون كيخوته دي لا منشا مغامرة الكونتيسـة تريفالدي، الملقبة بالسيدة المتألمة، بمجرد محاولتـه القيـام بذلـك. إن مالبرونو راضٍ عن ذلك وسـيزيل لحى الوصيفات، عندما يكمل الخادم جلد نفسـه فإن الحمامة البيضاء سـتتحرر ممن يطاردهـا؛ هذا ما يأمـره الحكيم مرلين الساحر الأول بين جميع السحرة".

ولم يكد دون كيخوته يقرأ ذلك حتى فهم أن السحر سيزول عـن دولثينيا، ففرح فرحاً شـديداً وخاصة أنه أتـم المهمة دون أخطار تذكر.

ولما سألت الدوقة سانشو كيف كانت حاله بعد هذه الرحلة الشاقة أجابها سانشو:

- لقد شعرت يا سيدتي أننا كنا نطير في منطقة النار، وأردت أن أفتـح عينـي لحظة فنظـرت إلى الأرض وقـد بدت لي صغيـرة كحبة الخـردل، وأن النـاس الذين يمشـون عليها ليسوا إلا أكبر من حبات البندق.
- فقالت له الدوقة: يبدو لي يا سانشـو أنك لم تر إلا الناس، لأنه وفقاً لما تقول، كل رجل أكبر من الأرض.
- إن جـلَّ ما أعرفه يا سـيدتي هو أنه لما طرنا بفعل السـحر، فإنني أسـتطيع أيضاً بواسطة السـحر أن أرى كل الأرض. وصدقينـي إذا قلت لك يا سـيدتي إنني كنت قريباً جداً من السـماء إلى درجة أنني اقتربت من النجوم ورحت أحاول ملامستها.

وبينما كان سانشــو يتسلى برؤية النجوم ماذا كان يفعل دون كيخوته، سأل الدوق:

- لما كانت هـذه الأمور تحدث خارج نطاق الطبيعة، فليس بغريـبٍ مـا يقوله سانشـو. أما أنا فقد شـعرت أننـا اجتزنا منطقة البرد ولامسـنا منطقـة النار، ولكننـي لا أصدق أننا وصلنـا إلـى النجوم التـي يتحدث عنهـا سانشـو لأننا كنا سنحترق، لذلك فإن سانشو إما يكذب أو يحلم.

الفصل السابع عشر

النصائح التي أسداها دون كيخوته لسانشو من أجل حكم الجزيرة.

بعثت مغامرة الحصان الخشبي الرضا في نفس الدوق والدوقة اللذين قررا متابعة السخرية من دون كيخوته وسانشو. قاما هذه المرة بتلقين الخدم كيف ينبغي لهم التعامل مع سانشو عندما يستلم حكم الجزيرة الموعود به، أما سانشو فراح يرتب نفسه ليصير حاكم جزيرة.

قال سانشو للدوق:

- بعد أن رأيت الأرض وأنا في الجو ثم هبطت أرضاً، لم أعد أرغب بأن أصير حاكماً، ذلك أنه، ما الفائدة من حكم حبة خردل؟ فإذا شئت سيادتك أن تمنحني ولو قسماً صغيراً من السماء، فإني أفضله على أكبر جزيرة في العالم.
- انتبه يا عزيزي سانشو- أجابه الدوق- أنا لا أستطيع أن

أعطـي قسـماً من السـماء، فالله وحـده يسـتطيع أن يفعل ذلك. ما أستطيع أن أعطيك إياه هو حكم جزيرة.

- فلتأت هـذه الجزيـرة- قال سانشـو- وسـأحارب لأكون أفضـل حاكم، وليس ذلك طمعـاً، ولكنني أريد أن أتذوق طعـم الحكم، إذ إنني أعتقد أنـه من الجيد أن يحكم المرء ولو كان قطيع من الغنم.

- عليـك أن تعرف يا سانشـو- قال الدوق- أنـك غداً صباحاً ستذهب لحكم الجزيرة،، وسيقومون اليوم بتجهيزك لهذا.

في هـذه الأثناء وصـل دون كيخوته، وعندمـا عرف بالأمر أمسك سانشو من يده وأخذه إلى غرفته لينصحه كيف يتصرف عندما يصبح حاكماً، فهكذا قال له:

- أحمد الله جداً يا سانشو لأن الحظ قد واتاك. بعض الناس يطلبون ويتوسلون لكنهم لا يحصلون على ما يريدون؛ ثم يأتي شـخص آخر ومن دون أن يعـرف كيف يحصل على المنصـب. أما أنت يا سانشـو لما كنت في نظري شـخصاً أحمـق، فهـا أنت دون أن تفعل شـيئاً سـوى أنـك بجانب فـارس جـوال تحصـل علـى حكـم جزيـرة. ولمـا كانت المناصب الكبيرة صعبة الحمل فإني أنصحك بما يلي:

أولاً عليك أن تخاف الله؛ لأن رأس الحكمة مخافة الله وإن صرت حكيماً فلن تضل أبداً. ثانياً اعرف نفسك جيداً وانظر من أنت، فمعرفة النفس هي من أصعب أنواع المعرفة التي يمكن أن تتخيلها. تصرف بحكمة، وكن متواضعاً، ولا تخجل من كونك تنحدر من أسرة فلاح، ولا تنسى يا سانشو أن الدم يورث والفضيلة تكتسب؛ فالفضيلة تساوي بقيمتها ما لا يمكن أن يساويه الدم. كن رحيماً وليكن لدموع الفقير في نفسك تأثير أكبر من شكاوى الغني، واعمل على كشف الحقيقة من خلال وعود الغني وبكاء الفقير. ولا تكن قاسياً عند تحقيق العدالة بل رحيماً. إذا اتبعت هذه النصائح يا سانشو طالت شهرتك، وعظمت سعادتك وعشت بسلامٍ مدى الحياة.

راح سانشو يستمع إلى نصائح سيده بانتباه وحاول أن يحفظ بعضاً منها في ذاكرته، فتابع دون كيخوته:

أما فيما يتعلق ببدنك ومنزلك، فأول ما ينبغي عليك فعله هو أن تكون نظيفاً، وأن تقص أظافرك ولا تجعلها تنمو كثيراً. لا تأكل ثوماً ولا بصلاً لكي لا يكتشفوا أصلك من رائحتهما. امش بوقار، وتكلم بهدوء لكن بطريقة لا تبدي أنك تستمع

إلى نفسـك. كل قليلاً وتعش أقل فصحة الجسـم تتوقف كلها على المعدة. لا تشرب كثيراً من الخمر، فالسكر يكشف السر، ولا يحقق الوعد. ولا تمضغ بسرعة أبداً وحذار أن تتجشأ أمام الناس.

كان سانشـو يستمع إلى هذا كله وعندما انتهى دون كيخوته من إسداء النصائح لسانشو قال له سانشو:

- سـيدي إن كانـت فخامتك تـرى أنني لا أصلـح لأن أكون حاكمـاً لهـذه الجزيـرة، فسـأتخلى عن هـذا فـوراً إذ إنني أفضّـل أن أذهب وأنا سانشـو إلى السـماء علـى أن أذهب وأنا حاكم إلى الجحيم.
- فأجابـه دون كيخوته: إنك تسـتحق أن تحكم ألف جزيرة بسـبب هذه الكلمات الأخيرة التي نطقت بها، لأن أصلك طيـب، ومن دون هذا الأصل لا فائدة للعلم. لنذهب الآن لتناول الطعام فالجميع سيكونون بانتظارنا.

الفصل الثامن عشر

حكم الجزيرة

وصل سانشو مع مرافقيه إلى مكان فيه ما يقارب من الناس ألف نسـمة. وقالوا له إن هذه الجزيرة اسـمها جزيرة باراتاريا، وهكـذا عندما وصل إلى أبـوب الجزيرة خرج الشـعب للقائه ودقت الأجراس وأظهر الجميع سـعادة بالغـة لرؤية حاكمهم الجديد. واقتيد في احتفال كبير إلى الكنيسـة لشكر الإله وبعد ذلك تم تسليمه مفاتيح الجزيرة وسط مراسم مضحكة، وأخيراً تم اصطحابه إلى المحكمة حيث تم إجلاسـه، فقال له الخادم الذي أرسله الدوق معه:

- لقد جرى العرف يا سـيدي أنَّ الحاكم الجديد حين يتولى حكـم الجزيـرة يجـب أن يجيب عن أسـئلة صعبـة، ومن خلال أجوبته يعرف الشـعب مدى حكمة حاكمه الجديد،

فإما أن ينعم به وإما أن يحزن.

وفي تلك الأثناء دخلت القاعة امرأة تشد بيد راع غنم وهي تصرخ وتصيح:

- العدالة يا سيدي الحاكم العدالة! لقد قابلني هذا الرجل الكريه في وسط الحقل، واعتدى علي بالقوة، لقد استغلني كالخرقة البالية. يا لحظي التعيس، لقد سلبني هذا الرجل ما حافظت عليه طوال ثلاث وعشرين سنة، لقد حافظت على نفسي طويلاً والآن أتى هذا الرجل ليدنسني بيديه الكريهتين.
- هذا ما علينا التحقق منه – قال سانشو– هل يد هذا الرجل قذرة فعلاً؟

ثم سأل سانشو الرجل ما جوابه عما تدعيه المرأة فأجابه الراعي:

- أسيادي، أنا راع فقير، خرجت في هذا الصباح بغية بيع أربعة خنازير وأنا في طريقي إلى المنزل صادفت هذه المرأة وأغرانا الشيطان، فقمت بدفع مال كاف لها، أما

هـي، وقد طمعت بأكثر، اقتادتني إلـى هنا. تقول لك إنني أرغمتها، ولكنها تكذب وهذه هي الحقيقة يا سيدي.

سـأل سانشـو الرجل إن كان يحضـر معه نقـوداً فأجابه بأنه يحمل معه ما يكفي، فأمره سانشو أن يعطي كل النقود التي معه للمـرأة، وهـذا ما فعله، أمـا المرأة فقد أخـذت النقود وراحت تشـكر الحاكم لأنه نظر في أمرها. وخرجت من القاعة فرحة. فقال سانشو للراعي:

- أيّها الرجـل الطيب، الِحق تلك المرأة واسـرق منها كيس النقود الذي أعطيتها إيّاه وتعال به إلى هنا.

كان الجميع ينتظرون حكم سانشـو فـي القضية، وبعد فترة قليلـة عـاد الرجل والمـرأة إلى القاعـة، وكانت المـرأة تحمل كيـس النقـود معهـا أما الرجـل، فكان يحـاول أن يأخـذه منها ولكنه لم يستطع ذلك، فراحت تصيح بصوتٍ عال:

- العدالة، عدالة الله والناس! انظر يا سيدي إلى هذا الرجل عديـم الخجل والإحسـاس إنه يحـاول نزع كيـس النقود الذي أعطيتني إياه.

- فسألها سانشو: وهل استطاع أن ينتزعه منك؟
- وكيف له هذا يا سيدي- ينتزع حياتي ولا ينتزع هذا الكيس، إنه في أيدٍ قوية يا سيدي.
- فقال الرجل: معها حق يا سيدي لقد هزمت ولم أستطع أن أنزع الكيس منها بالقوة.
- فأعاد سانشو النقود إلى الرجل وقال للمرأة:
- يا أختاه، لو كنت في الدفاع عن شرفك بذلت نصف ما بذلته من قوة في الدفاع عن الكيس، لما استطاعت قوة هرقل أن تتغلب عليك. هيا غادري هذه الجزيرة وإلا جُلدت مئتي جلدة.

شكر الرجل سيده سانشو وانصرف، أما الحضور فقد اندهشوا من ذكاء حاكمهم الجديد سانشو.

الفصل التاسع عشر

نهاية حكم سانشو

مضت سبعة أيام على حكم سانشو الجزيرة وكان مرهقاً متعباً من إصدار الأحكام والقرارات. وفي الليلة السابعة نفسها وبينما كان على وشك النوم سمع صوت ضجيج وأجراس. فقعد في سريره وراح يحاول أن يتبيّن مصدر هذه الضجة ولكن عبثاً، غير أنه خاف جداً عندما بدأ يسمع الأبواق والطبول، ففتح باب غرفته وشاهد أكثر من عشرين شخصاً في الممر ومعهم مشاعل وسيوف وكانوا يصيحون بصوت عال:

- إلى السلاح، إلى السلاح يا سيدي! لقد دخل الجزيرة الأعداء، وسوف نضيع إن لم تنقذنا بشجاعتك. خذ سلاحك يا سيدي إذا أردت ألا تموت، وتخسر هذه الجزيرة.
- فأجاب سانشو وماذا أعرف أنا عن السلاح وعن

المساعدة؟ إن هذه الأشياء يجب أن تترك لسيدي دون كيخوته الذي بضربتين من سيفه يقتلهم جميعاً.

- ولكن يا سيدي الحاكم - قال واحد من المجموعة - هيا خذ سلاحك الذي أحضرناه لك واخرج إلى الساحة وكن قائدنا جميعاً.

وفي الحال وضعوا على قميصه ترسين كبيرين واحد على صدره والآخر في ظهره وربطوا هذين الترسين بحبال بحيث أصبح سانشو عاجز عن الحركة. ثم أعطوه رمحاً وسيفاً وطلبوا إليه أن يقودهم، وكل شيء سينتهي على ما يرام.

- ولكن كيف أمشي - أجابهم سانشو - وأنا لا أستطيع ثني ركبتي بسبب هذين الترسين؟ ما عليكم القيام به هو أن تحملوني وتضعوني عند الباب وأنا سأدافع برمحي أو بجسدي.

- تقدم يا سيدي الحاكم تقدم - قال واحد آخر - فالخوف هو من يمنعك من المسير، لقد تأخرنا والعدو يقترب.

حاول سانشو المشي لكنه وقع على الأرض وبدا كمثل

السلحفاة التي تخفت داخل صدفتها، وعلى الرغم من هذا تابع الحشد السخرية وإصدار أصوات تشير إلى الحرب وعبروا من فوق جسم سانشو، حتى أنه لو لم يضع رأسه داخل الترسين لأصابه ألم شديد.

وقضى وقتاً على هذه الحال إلى أن سمع صوتاً قريباً منه:

- النصر، النصر! العدو يتراجع! انهض يا سيدي الحاكم وتعال تمتع بهذا النصر ووزع الغنائم التي تركها العدو بسبب قوة ذراعك!

وهكذا ساعدوا سانشو على النهوض فقال لهم:

- كم أودُّ أن أعرف أيّ عدوٍ هزمته أنا، إن كل ما أطلبه هو أن تعطوني نبيذاً لأنني أشعر بعطش شديد.

أحضروا النبيذ إلى سانشو ورفعوا عنه الترسين وأجلسوه فأصيب بإغماء. وعندما استيقظ راح يفكر مع نفسه، ثم نهض ولبس ثيابه وراح إلى حماره وبعد أن قبّله على جبينه قال له:

- تعال يا صديقي ورفيقي، تعال يا صديق أعمالي وشقائي.

عندما كنت أعتني بك وحدك، كانت أيامي سـعيدة؛ ولكن منذ أن تركتك وصعدت إلى برج الطموح صار كل شـيء تعيس وسيئ.

جهز حماره وركب عليه وقال للحاضرين:

- ابتعدوا أيها السادة، ودعوني أعود إلى حرّيّتي القديمة. أنا لم أولـد لأصير حاكماً وأدافع عن جزر، غير أنني أحسـن الحـرث والزراعة أكثر مـن إصدار القوانيـن. وكم أفضّل أن أكون في ظل شـجرة بلـوط، بحريتي، علـى النوم، من دون حريـة، بين أغطية الحريـر. فليكن الله معكم، وقولوا لسـيدي الـدوق إننـي خرجت كمـا دخلـت، دون ربحٍ أو خسـارة. افسـحوا لي الطريق لقد تأخر الوقـت، أنا ذاهبٌ من هنا.
- سـيدي الحاكم- قـال الخـادم- قبل أن تذهـب عليك أن تشـرح لنـا ما فعلته أيام حكمك كما جـرت العادة في هذه الجزيرة.
- فأجابه سانشـو: لا أحد يسـتطيع أن يطلب مني شيئاً سوى

الـدوق الـذي أفكـر أن أشـرح له كل شـيء، وهـا أنا وقد خرجـت عارياً مثلما دخلت، فليس هنـاك داع للقول إنني حكمت جيداً.

وافـق الجميع على ما قاله سانشـو وتركـوه يذهب معجبين جداً بقراراته الحاسمة وبعقله الرزين.

الفصل العشرون

مغامرة الثيران

ترك سانشو الجزيرة وعاد إلى القصر حيث كان سيده دون كيخوته، وأخبره سانشو بكل شيء فرحّب به دون كيخوته. راح دون كيخوته يفكر أنه أمضى وقتاً طويلاً في القلعة وهو ينعم ويتلذّذ بالطعام والخدمة فقرر الرحيل أخيراً وأخبر الدوق والدوقة بالأمر، وهكذا حيا دون كيخوته وسانشو الدوق والدوقة وغادرا القصر بعد أن مرا بمغامرات عديدة في طريقهما إلى سرقسطة.

عندما أصبح دون كيخوته في الحقول، شعر بفرحةٍ عامرة والتفت إلى سانشو وقال له:

- عزيزي سانشو إن الحرية هي أثمن شيء منحته السماء للإنسان؛ وكل الكنوز التي توجد على سطح الأرض لا تساويها. فقط من أجل الحرية، ومن أجل الشرف أيضاً،

يجب أن يخاطر الإنسان بحياته. إن الأسر هو أصعب ما يمكن أن يصيب الإنسان يا عزيزي سانشو. ما أسعد من أعطته السماء كسرة خبز دون أن يشعر أنه مضطّر للاعتراف بجميل أحدٍ ما إلا السماء نفسها.

- فأجابه سانشو: ليس من العدل ألا نشكر المئتي قطعة نقدية التي أعطاني إياها الدوق يا سيدي، فلن نصادف دائماً قصوراً وقلاعاً ترحب بنا كما فعل الدوق والدوقة، بل قد نمر في فنادق ويتم إساءة معاملتنا كما حدث سابقاً.

وبينما كان الاثنان يتحادثان أبصرا مجموعة من الأشخاص تركب أحصنتها وتركض بسرعة وكان معهم سيوف ورماح، فاقترب واحد من دون كيخوته وقال له:

- ابتعد عن الطريق أيها الشيطان وإلا مزّقتك هذه الثيران إرباً إرباً.

- فأجابه دون كيخوته لا يوجد ثيران تخيفني حتى لو كانت أفظع ثيران في العالم. اعترفوا بهذا جميعاً وإلا تهيؤوا للقتال.

ولم يكن عند راعي البقر الوقت الكافي للرد ولا عند دون

كيخوتـه، لأن قطيـع الثيران وسـائر من معهم مـن الذين كانوا يقتـادون القطيع عبـروا فوق دون كيخوته وروثينانته وسانشـو وحمـاره. وهكذا ظل الجميع على الأرض مطحونين ولكنهم نهضـوا بعد ذلك وركـب دون كيخوته حصانه وحاول اللحاق بهم وهو يصيح:

- توقفوا أيها الأوغاد! إن فارساً واحداً يتحداكم جميعاً.

ولكـن دون كيخوتـه لـم يسـتطع اللحـاق بهـم لأن الثيران ورعاتهـا كانـوا قـد مـروا دون أن يبالـوا بمـا يقولـه. وهكـذا انتظـر دون كيخوتـه فـي منتصـف الطريـق إلـى أن يأتيـه سانشـو مـع حمـاره. وتابـع الاثنـان طريقهمـا وهما يشـعران بالعار والخجل.

الفصل الحادي والعشرون

دون كيخوته يصل إلى برشلونة

وبعد أن مشيا طويلاً على الدرب وصلا إلى الشاطئ في ليلة عيد القديس يوحنا. وانتظرا حتى الصباح، وعندما استيقظا شاهدا البحر الذي لم يسبق لهما أن شاهداه من قبل. بدا لهما كبيراً وواسعاً جداً أكبر من بحيرات رويدرا.

شاهدا الزوارق التي كانت على الشاطئ وكانت تزينها الأشرعة الملونة التي تتحرك بسبب الهواء. فجأة سمعا أصوات الأبواق والزمامير وحدثت معركة بين الصيادين والخيالة الذين كانوا يركبون أحصنة. دُهِش دون كيخوته وسانشو بالذي شاهداه وفجأة اقترب منهما فارسٌ وقال لدون كيخوته بصوتٍ عال:

- أهلاً وسهلاً بكم في مدينتنا يا زهرة الفروسية الجوالة. أهلاً وسهلاً بك أيها الفارس الشجاع دون كيخوته دي لا

منشا. تفضل معنا فنحن كلنا خدمٌ لك.

- أشكركم جميعاً على حسن استضافتكم- خذوني إلى حيث تريدون.

ويحكى أن سكان برشلونة كانوا قد قرؤوا الجزء الأول من قصة دون كيخوته دي لا منشا ولذلك عرفوا دون كيخوته وسانشو.

وهكذا أحاط الجميع بدون كيخوته وسانشو، واقتادوه إلى بيت الدون أنطونيو مورينو، وهو شخص غني صادق وطيب ومعروف في برشلونة.

الفصل الثاني والعشرون

فارس القمر الأبيض

ذات صباح خرج دون كيخوته ليتنزه على الشاطئ وهو يحمل كامل أسلحته وفجأة شاهد فارساً مدججاً يتجه نحوه ويحمل على ترسه رسماً لقمر باهر، فلما اقترب من دون كيخوته قال له:

- أيها الفارس المغوار، يا دون كيخوته دي لا منشا، أنا هو فارس القمر الأبيض. لقد جئت هنا لأتصارع معك وأرى قوة ذراعك، وأرغمك على الاعتراف أن سيدتي، أياً كانت، أجمل من سيدتك دولثينيا ديل توبوسو، وإنك إذا اعترفت بهذا، ستنجو من الموت. وأما إذا قررت أن تقاتلني وهزمتك، فسيكون الشرط أن تترك سلاحك وتعود إلى قريتك خلال عام، حيث تعيش بسلام دون أن تعود إلى حمل السيف مجدداً. وأما إذا هزمتني أنت

فسأكون بخدمتك مدى العمر وستكون رقبتي تحت حد سيفك وسأعطيك حصاني وأسلحتي وشهرتي كلها ستصبح ملكك.

وقف دون كيخوته مذهولاً بما سمعه من الفارس، فرد عليه بصوت وقور وبهدوء:

- يا فارس القمر الأبيض الذي لم أسمع بشهرتك أبداً، سأرغمك على الاعتراف أنك لم تر أبداً السيدة دولثينيا، لأنك لو رأيتها، لما طلبت مثل هذا الطلب ولكنت اعترفت أنها أجمل من سيدتك. وها أنا أقبل العراك معك، ولكنني لا أرغب بأخذ شهرتك بعد هزيمتك، لأنني لا أعرف أية شهرة هي، وأي بطولات لديك، وإنني سأكتفي بشهرتي. لذلك أترك لك حرية خيار المكان الذي ترغب وأنا سأختار جهتي.

في تلك الأثناء كان سانشو يتنزه على الشاطئ برفقة مجموعة من الفرسان الذين تعرف عليهم في برشلونة، إضافة إلى دون أنطونيو وهو الرجل الذي يقيم عنده مع دون كيخوته. وعندما رأى الجميع دون كيخوته وفارس القمر الأبيض تعجبوا ولم

يعرفوا إذا كان الأمر حقيقياً أم سخريةً. فقال دون أنطونيو:

- لما كان الفارسان مصرّين على المبارزة فليتحضّرا لذلك.

وقف كل واحد من الفارسين في جهة وهاجما بعضهما بعضاً لأنه لم يعد بوسعهما الانتظار أكثر من ذلك، ولما كان فارس القمر الأبيض رشيقاً أكثر من دون كيخوته، استطاع أن يصل إلى دون كيخوته ويضربه بقوة أوقعت الحصان روثينانته ودون كيخوته معاً أرضاً. اقترب فارس القمر الأبيض من دون كيخوته ووضع سيفه على رقبته وقال له:

- لقد هزمت أيها الفارس وستموت الآن إن لم تعترف أن سيّدتي تفوق سيدتك جمالاً.

دون كيخوته الذي آلمه السقوط أرضاً، كان محطماً ولم يقو على رفع رأسه عالياً قال له بصوت منخفض:

- إن سيدتي دولثينيا هي أجمل سيدة في هذا العالم، وأنا أشقى الفرسان على هذه الأرض. أيها الفارس اغرز سيفك في صدري وانتزع مني حياتي، فلقد سلبتني شرفي.
- لن أفعل ذلك- قال فارس القمر الأبيض- وليعشْ جمال

السـيدة دولثينيـا ديل توبوسـو وليبـقَ مجـدك. يكفيني أن تعتـزل في قريتك لمدة سـنة، أو أكثر وفقاً لمـا آمرك، كما اتفقنا قبل الدخول في هذه المبارزة.

وافق دون كيخوته على كل ما أمره به فارس القمر الأبيض، وهكـذا ركـب الفـارس المنتصـر حصانـه وعـاد مسـرعاً إلى المدينـة. أما دون أنطونيو فقد قام بمسـاعدة دون كيخوته على النهـوض وكشـف عن وجهه فوجده شـاحباً يتصبب عرقاً، أما سانشـو فكان حزيناً غارقاً فـي تفكيره لم يعرف ما يقول ولا ما يفعل وهو يرى مولاه مستسـلماً مجبراً على ترك السلاح لمدة عام كامل، لقد بدا له كل شـيء كمثل الحلم، أو كمثل السحر. ولكـن أخيراً حملـوا دون كيخوتـه على كرسـي بذراعين وتم أخذه إلى المدينة.

أمـا دون أنطونيـو فقـد لحق بفـارس القمـر الأبيض وذلك بغيـة معرفة هذا الفارس، وعندما انتبه فارس القمر الأبيض أنه يتبعه، التفت إليه وقال له:

- أعرف يا سـيدي سبب قدومك ورائي وهو لتعرف من أنا، غيـر أننـي لن أكتـم الأمر عنك بعـد الآن، أنـا هو صاحب

الإجازة سانسـون كرسـكو، من قرية دون كيخوته نفسها، لقد أثار جنونه في أنفسنا نحن الذين نعرفه الحزن، ولذلك اعتقدنـا أن الراحـة وحدها هي التي تردّ لـه الصحة، ولقد فعلـت كل مـا فعلـت لأجعله يعـود إلى قريته لكـي يرتاح ويشـفى مـن جنونه. لقـد حاولت هذا سـابقاً تحت اسـم فـارس المرايـا، لكن الحظ لـم يقف إلى جانبـي في تلك المـرة واسـتطاع دون كيخوتـه أن يهزمني، أمـا الآن فلقد حدث العكس. أنا واثق أنه سـيفي بمـا وعده، وأترجاك يا سيدي ألا تخبر دون كيخوته من أنا حتى لا تضيع جهودي ويسـتطيع أن يسـتردّ عقلـه، إذ إن عقلـه سـليم إذا مـا ترك ترهات وحماقات كتب الفروسية.

- فأجابـه دون أنطونيـو آه يـا سـيدي، سـامحك اللـه علـى الذنـب الذي ارتكبته بحق النـاس أجمعين برغبتك أن ترد أمتع المجانين عاقلاً. إنه لأمرٌ مؤسـف ومحزن أن يشـفى دون كيخوته، إننا بشـفائه سـنفقد ليس جنونه فحسب، بل وحماقـات خادمه سانشـو بانثا التي تسـعد الكآبة نفسـها. ولكـن علـى الرغم من كل شـيء أعـدك أنني لـن أقول له شـيئاً، لكي أرى إن كان كلامك صحيحاً، لأنني أشـك أنه

سينفّذ ما وعدك به.

وهكذا غادر سانسـون كرسكو المدينة وعاد إلى القرية. أما دون كيخوته فقد قضى ستة أيام في السرير بعد خسارته ، وكان حزيناً، غارقاً في التفكير لا يتوقف عن تذكر خسارته المعركة، أما سانشو فراح يواسيه قائلاً له:

- سـيدي ومولاي، ارفع رأسـك وافرح ما استطعت واشكر الله أنه لم ينكسر لك ضلع. لِنعُدْ إلى منزلنا، ولنتوقّف عن البحث وعن المغامرات في أماكن لا نعرفها.
- اصمـت يا سانشـو –أجابـه دون كيخوتـه– فأنا سـأعتزل عـن حمل السّـلاح لمـدة عام واحـد وبعدها سـأعود إلى بطولاتي المشـرفة ولن تعوزني مملكة لكسبها أو مقاطعة لأهبك إياها.
- دعنـا من هـذا الآن يا سـيدي– قال سانشـو– فكمـا يقول المثل من يسقط اليوم ينهض غداً.

جـاء يـوم الرحيـل، وغـادر دون كيخوتـه المدينـة من دون سـلاحه أما سانشـو فكان هذه المرة يمشـي لأن أسـلحة دون كيخوته كانت على ظهر حماره.

الفصل الثالث والعشرون

دون كيخوته يقرر أن يصبح راعياً

وبعد أن سـار الاثنـان وقتا طويلاً وصلا إلـى المكان الذي عبـرت فيـه الثيـران فوقهما، وقد عـرف دون كيخوتـه المكان فقال لسانشو:

- هـذا هـو المرج الـذي التقينـا فيه بالرعـاة. أوه يـا عزيزي سانشـو، إن أعجبك هـذا، فكم أودُّ أن نصبـح رعاة، على الأقـل خلال مدة اعتزالي، سأشـتري من الماعز والغنم ما يكفينا، وسـألقّب نفسـي الراعي كيخوتيث وأنت سيكون اسـمك الراعي بانثينو؛ وسـنجول عبر الجبـال والمروج؛ نشـرب مـن الينابيـع أو مـن الجـداول وسـتجود أشـجار السـنديان والبلـوط بظلالها وثمارها علينا فتـارة نغني هنا وتارةً نستشعر هناك. وهكذا ستصبح شهرتنا أبدية في هذه القرون وفي القرون القادمة.

- فأجابه سانشـو يا إلهـي، إن هذا النوع من الحياة يناسـبني جداً يا سيدي. وأعتقد أن صاحب الإجازة كرسكو والقس والحلاق سيرغبون بالمجيء معنا.
- فقال دون كيخوته أنت على حق يا سانشـو. سـنطلق على سانسـون كرسكو اسـم سانسـونينو أو الراعي كرسكون؛ والحلّاق سـندعوه نيكولاسـو أما القس فيمكننا أن نعطيه اسـم الراعي كوريامبرو. أما بالنسبة إلى الراعيات اللواتي سـنغرم بهـن فـلا ينقصهـن أسـماء، إذ إنه ليس هنـاك داع للبحث عن اسـم لسـيدتي، إذ إن دولثينيا هو اسـم يناسب الراعيـة والأميرة. أما أنت فتسـتطيع أن تلقب زوجتك بما تريد.
- أظـن أنـي سـأدعوها تيريزونـا، فهو اسـم يناسـب بدانتها ويناسب اسمها الحقيقي تيريزة. أجابه سانشو.
- فصـاح دون كيخوتـه: يا إلهي مـا هذه الحياة التي سـننعم بها يا صديقي سانشـو! كم من الموسيقى سنسمع ونغني! وسيسـاعدنا في هذه المهنة معرفتي القليلة للشعر، كذلك الحال بالنسبة لصاحب الإجازة.

- فقال له سانشـو: أما أنا يا سـيدي فتعيـس الحظّ إلى درجة أنني لن أرى اليوم الذي سـأصبح فيه راعياً، إذ إن الحكمة تنقصني لأن أصبح راعياً.

- دعنـا من هذا الآن يا سانشــو– قال لـه دون كيخوته– فلقد حل الليل، ولنبتعد عن الطريق الرئيسي، والله وحده يعلم ما يخبئ الغد.

جلدات سانشو

وبينما كان الاثنان يتابعان سيرهما، كان دون كيخوته غارقاً في أحزانه فراح يتذكر سيدته دولثينيا وإذ به يقول لسانشو:

- أنا مستعدٌّ لأن أدفع لك ثمن الجلدات التي ستضرب نفسك بها لرفع السحر عن دولثينيا، قل لي يا سانشو كم تريد، واجلد نفسك، ومن ثم ستأخذ ما تريد فأنت الذي تحمل نقودي.

فتح سانشو عينيه بسعادة ووافق على أن يجلد نفسه عن طيب خاطر.

- سأفعل هذا يا سيدي لأن حبّي لزوجتي وأولادي يرغمني على فعل هذا ويظهرني مظهر الرجل النفعي. كم ستعطيني على كل جلدة؟
- فأجابه دون كيخوته لو كان عليّ أن أدفع لك ثمن هذه

الخدمة التي ستسديها لي، لما كانت كنوز الدنيا كلها كافية ثمن هذه الخدمة. هيا يا سانشو ضع السعر الذي تريده.

- فأجابه سانشو إن عدد الجلدات ثلاثة آلاف وثلاثمائة جلدة، وكنت قد ضربت نفسي خمسة، ولكن هذه لن تدخل في الحساب. فإذا كانت كل ضربة بربع ريال، فبهذه الحال ينبغي أن تعطيني ثمانمائة وخمسة وعشرين ريال. سأخصم هذا المبلغ مما معي من نقود وسأعود إلى منزلي غنياً سعيداً على الرغم من جلدي لنفسي.

- بوركت يا عزيزي سانشو- قال له دون كيخوته- كم سنكون أنا ودولثينيا مدينين لك طول العمر. ولكن متى تريد أن تبدأ يا عزيزي سانشو؟

- متى- قال سانشو- الليلة من دون أدنى شك.

- ومع قدوم المساء دخلا بين الأشجار، أما سانشو فأخذ السوط وابتعد عن سيده، فلما رآه دون كيخوته يبتعد قال له:

- انتبه يا عزيزي سانشو، وحذار أن تمزق نفسك إرباً إرباً فلا أريدك أن تفقد حياتك قبل أن تصل إلى الرقم المطلوب.

- فأجابه سانشو سأضرب نفسي بطريقة لا انتزع فيها روحي ولكن أحسّ بالضربة تؤلمني.

وهكـذا تعرى سانشـو من خصره حتى قدميـه وبدأ يضرب نفسـه وراح دون كيخوته يعدّ. أما سانشـو الماكر فبعد الضربة الثالثة راح يضرب الأشـجار ويصيح متألمـاً، أما دون كيخوته وقد خاف أن يموت سانشو راح يقول له:

- بحياتك يا سانشو توقف عن هذا فوراً. لقد ضربت نفسك أكثر من ألف ضربة وهذا يكفي الآن.
- كلا، كلا يا سـيدي - أجابه سانشو - ابتعد قليلاً وسأضرب نفسي ألف ضربة أخرى.

وهكذا عاد سانشـو من مهمته بحماسـة عاليـة حتى أنه نزع قشر عدد من الأشجار. أما دون كيخوته فقال له:

- إنَّ السماء لا تسمح بأن تفقد حياتك هكذا، فلتنتظر دولثينيا إلى أن تطيب جراحك.
- فأجابه سانشو كما تريد يا سيدي، ولكن أرجوك أن تغطيني فأنا أشعر ببردٍ شديد من العرق الذي يتصبب مني.

وهكذا نــام الاثنان حتى الصباح فاســتيقظا وتابعا ســيرهما وتوقفـا عند فندق وكان دون كيخوته يراه فندقاً وليس قصراً أو قلعة، لأنّه منذ هزيمته راح يرى الأمور بعقلانية أكثر.

الفصل الخامس والعشرون

العودة إلى القرية

غـادر الاثنـان الفندق وتابعـا سـيرهما دون أن يحدث لهما شـيء يستحقّ الذكر، أما دون كيخوته فكان سعيداً لأن سانشو أنهـى جلد نفسـه، فـكان ينتظر أن يـرى دولثينيا وقـد زال عنها السـحر. وبعد أن سـارا مسـافة طويلـة أبصرا القريـة من بعيد، وعندما رآها سانشو جثا على ركبتيه وقال:

- افتـح عينيك أيها الوطن العزيز وانظر كيف عاد إليك ابنك سانشـو بانثا لا غنيـاً ولكن مجلـوداً جيداً. افتـح ذراعيك واستقبل ولدك دون كيخوته، الذي وإن عاد مهزوماً بذراعٍ أخـرى، فإنه قد انتصر على نفسـه وهذا أعظم نصر يرغب به المرء.
- دعـك من هذه التُّرَّهات يا سانشـو- قال له دون كيخوته- ولندخـل قريتنـا باحتـرام ولنعمـل بالحيـاة الرعويـة التي سنكرِّس حياتنا لها.



وعندمـا دخلا إلـى القرية وجـدا القس وصاحـب الإجازة في اسـتقبالهما. فنزل دون كيخوته عن حصانه وحضنهما، أما رجـال القرية فـراح الجميع ينظـر إليهما بدهشـة وهم يقولون لبعضهم البعض:

- تعالوا أيها الرجال وانظروا إلى حمار سانشو وحصان دون كيخوته الذي أصبح أجف وأنحف مما كان عليه سابقاً.

وصـل دون كيخوتـه إلـى بيتـه ووجـد بانتظـاره ابنـه أخيه والخادمـة اللتين كانتا قـد عرفتا بخبر وصوله القرية. أما زوجة سانشو فهرعت إليه مع ابنتها وعندما رأته قالت له:

- كيـف أتيت إلـى هنا يا زوجي العزيز؟ يبـدو عليك ملامح السكران أكثر منه من ملامح السلطان؟
- اخرسـي يا تيريـزا- أجابها سانشـو- ولنذهب إلـى منزلنا وهنـاك ستسـمعين منـي العجائـب. لقـد أحضـرت معي النقـود، وهذا ما يهم، لقد ربحتها بجهدي دون أن أسـبب الضرر لأحد.

أمـا دون كيخوته فقد روى لصاحـب الإجازة والقس كيف

انهـزم أمـام فـارس القمـر الأبيض وأنـه الآن مجبـر على ترك السّـلاح مدة عامٍ وفقاً لشروط المنازلة. أخبرهما أيضاً بنيّته أن يصير راعياً وأن يتمتّع بالعزلة في الحقول والمروج. شاء القدر أن تسمع ابنه أخيه والخادمة ما كان يقوله دون كيخوته وعندما أصبح دون كيخوته وحده دخلتا عليه.

- ما هذا الذي أسمعه يا خالي؟ قالت له ابنة أخيه- الآن بعد أن اعتقدنـا أنـك عدت إلى المنزل، تريد أن تقحم نفسـكَ في قصص الرعيان؟
- فأضافت الخادمة هل تسـتطيع حضرتك أن تتحمّل برودة الشـتاء وحرَّ الصيف في هذه الحقول والمروج؟ كلا، لأن هذه المهنة للرجال الأشداء الذين تربوا منذ ولادتهم على هـذه المهنـة. وإذا كان علينـا أن نختـار بيـن شـرّين، فإني أفضل أن تكون فارسـاً جوالاً على أن تكون راعياً. استمع إلى نصيحتي يا سيدي: ابق في منزلك، وتابع شؤون بيتك وساعد الفقراء.
- اسـكتي يا ابنتي- أجاب دون كيخوته- فأنا أعرف جيداً ما أفعله. خذوني إلى سريري أشعر أني مريض، ولكن تأكدا

قبل هذا أنني سـأوفر لكما ما تحتاجانه سـواء كنت فارسـاً جوالاً أو راعياً.

وهكذا حملـت الفتاتان الطيبتان دون كيخوته إلى سـريره، وقدمتا له الطعام والشراب واعتنتا به قدر المستطاع.

الفصل السادس والعشرون

وصية دون كيخوته وموته

كل مـن عليهـا فـانٍ، هذه هي حـال الحيـاة الإنسـانية. لقد وصلـت حيـاة دون كيخوتـه إلـى نهايتهـا في وقت لـم يخطر فـي بال أحـد ذلك. ولسـت أدري هـل كان السـبب حزنه من هزيمتـه أم إرادة السـماء هـي التـي اقتضت ذلـك، لقد أصيب صاحبنـا دون كيخوتـه دي لا منشـا بحمّى ألزمتـه الفراش مدة أسبوع كامل، وخلال هذا الأسبوع لم يتوقف سانشو، كرسكو الحـلاق والقس عن زيارتـه. حاول الجميع أن يواسـيه ولكن الحزن لم يفارق دون كيخوته.

فجأة، وبعد أن اسـتيقظ دون كيخوته من نومه صاح بصوت عال:

- تبـارك اللـه فيما أنعمه علـيَّ من خير! إن رحمتـه ليس لها حدود.

- ولكـن مـاذا تقول حضرتك؟ سـألته ابنه أخيـه- أيّة رحمة هذه؟

- فأجابهـا دون كيخوته إن رحمة الله هـو أنه أعاد لي عقلي حـراً، صافيـاً دون أية سـحابة جهـل تهت فيهـا من خلال قراءتـي لكتب الفروسـية. أما الآن فها أنا أقـرُّ بما فيها من ترّهـات ولسـت آسـفاً إلا علـى أمـر واحـد وهـو أنني لن أستطيع أن أعوض الوقت الذي أضعته لكي أقرأ كتباً تلقي النـور فـي روحي. والآن أشـعر يـا ابنتي أنني على وشـك المـوت ولا أريد أن أمـوت وأنا أحمل لقب المجنون وإن كنت كذلك طوال ذلك الوقت، فكم أودُّ أن أغيّر هذا.

في هـذه الأثناء وصل الكاهن، صاحـب الإجازة والحلاق نيكولاس، وما إن رآهم دون كيخوته حتى قال:

- افرحـوا يا أصدقائي، لسـت بعـد الآن دون كيخوته دي لا منشـا، بل ألونسـو كيخانو الملقّب أيضاً بالطّيّب. أنا عدو لآماديـس الغالي ولـكلّ الفرسـان الجواليـن، لقد صرت أكـره قصص الفرسـان الجواليـن ولا أرغب بالسّـماع بها أبداً.

أثارت هـذه الكلمات دموع ابنة أخيـه والخادمة إضافة إلى دموع سانشـو الـذي كان حاضراً أيضـاً، لأن دون كيخوته كان دائمـاً رجلاً طيبـاً وهادئاً طيب القلب. وفي هـذه الأثناء طلب دون كيخوته أن يدخل الرجل الذي سيكتب وصيته وقال دون كيخوته:

- وأنـا بكامل إرادتـي وعقلي فإني أطلـب أن تُدفع لخادمي سانشـو باثنا كل النقود التي بحوزتـي، ولما كنت في أثناء جنوني قد سـاعدته في الحصول علـى حكم جزيرة، فإني أرغب وأنا بكامل عقلي أن أمنحه مملكة لو كان باستطاعتي ذلك، لأنه يستحق هذا لبساطته وصدقه وإخلاصه.

وفي أثناء هذا التفت إلى سانشو وقال له:

- اعذرنـي يا عزيـزي سانشـو لأنني جعلتـك تبـدو مجنوناً مثلـي، وذلـك بجعلك تقع فـي الخطأ الذي كنـت أقع فيه وهو الاعتقاد أن هناك فرساناً جوالة.
- آه يـا سـيدي- أجابـه سانشـو- لا تمـت وعـش سـنوات أطـول، إنَّ أكبـر جنونٍ يمكن أن يرتكبه إنسـان هو أن يدع

نفسه يموت. لا تكن كسولاً، وانهض ولنذهب إلى المرج ونحـن نرتدي ثيـاب الرعاة كما اتفقنا. لعلنـا نجد دولثينيا خلـف شـجيرة صغيرة وقـد زال عنهـا السـحر. وإذا كان الحـزن مـن هزيمتك هـو الذي جعلـك تمـوت، فالذنب ذنبي في هذا لأنني لم أشـد سرج حصانك روثينانته ولهذا سقطت عنه. من يُهزم اليوم ينتصر غداً يا سيدي.

- فقال كرسكو إن سانشو على حق.
- فقـال دون كيخوتـه أيها السـادة لقـد كنت مجنونـاً والآن أنـا بكامـل عقلـي. والآن لنتابـع الوصية: أوصـي بجميع ممتلكاتـي لأنطونيـا كيخانـا ابنـة أخـي الحاضـرة معنـا هنـا، وأوصـي لهـا أن تدفع للخادمـة كامل أجرهـا للمدّة التـي قضتهـا في خدمتي. وأمـا إذا أرادت أن تتـزوّج فإني أوصـي أن يكـون زوجهـا جاهلاً بكتـب الفروسـية، وإذا تبيّـن غير ذلك، فسـتحرم من الميراث كلّـه. وكذلك فإني أتوسـل للقسّ وللسيد صاحب الإجازة كرسكو أنهما، إذا تصـادف، وتعرفا على كاتب القسـم الثانـي من قصة دون

كيخوتـه أن يطلبـا منه المعـذرة لأني هيأت لـه الفرصة أن يكتب كل هذه الترهات الجنونية.

ولما انتهى دون كيخوته من وصيته أصابته نوبة قوية وتمدّد في فراشه. لقد بقي ضعيفاً على هذه الحال مدة ثلاثة أيام وبعد أن تلقى المراسم الدينية، لفظ أنفاسه الأخيرة ومات.

طلـب قس القرية مـن كاتب الوصية أن يعطيه شـهادة بوفاة ألونسـو كيخانـو الملقـب بالطيـب، والمعـروف باسـم دون كيخوته دي لا منشا، لكي لا يجرؤ كاتب آخر غير كاتب القصة الحقيقي سيدي حامد بن الأيل على متابعة قصص ومغامرات البطل دون كيخوته..



الفهرس

الصفحة

الصفحة

الجزء الثاني: دون كيخوته دي لا منشا

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٣م

عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة